الخطابة السياسية

في العصر الحديث

د. عماد عبداللطيف

دار العين للنشر

د. عماد عبداللطيف

الخطابة السياسية في العصر الحديث

الخطابة السياسية في العصر الحديث

المؤلف، الوسيط، الجمهور

الخطابة السياسية في العصر الحديث

المؤلف الوسيط الجمهور

د. عماد عبد اللطيف

الطبعة الأولى / ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/١٩٢٥٥
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 298 - 7

الخطابة السياسية في العصر الحديث

المؤلف، الوسيط، الجمهور

د. عماد عبد اللطيف

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد اللطيف، عماد

الخطابة السياسية في العصر الحديث: المؤلف، الوسيط، الجمهور/عماد عبد اللطيف.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٥

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٢٩٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الخطب السياسية

أ- العنوان

٣٢٠,٠٤

رقم الإيداع/ ١٩٢٥٥ / ٢٠١٤

إلى ياسمين

المحتويات

هذا الكتاب 9

الفصل الأول:

جمهور الخطابة السياسية: من الصحيفة إلى اليوتيوب 15

الفصل الثاني:

عصر استجابات الجماهير: حالة خطاب أوباما للعالم الإسلامي 43

الفصل الثالث:

كتّاب الخطب السياسية: معضلة الكاتب الخفي 87

ملحق:

مختارات من الخطب السياسية المدروسة 143

المصادر والمراجع 183

هذا الكتاب

الخطبة السياسية كلام شفاهي يُلقيه سياسيون أمام جمهور، ويتناولون فيه أمور الحكم وقضاياه. وهي وسيلة من وسائل التواصل بين النخب السياسية والشعب، وبين النخب السياسية فيما بينها؛ وظلت الأداة المثلى للتأثير في الجماهير وحشدهم في أوقات السلم والحرب على مدار آلاف السنين. لكن تاريخ البشرية احتفى بقوة السيف أكثر مما احتفى بقوة الكلمة؛ ويعلل هذا غياب الخطابة السياسية أو تدهورها في أنظمة الحكم التي تحصل على السلطة بحد السيف، وتستخدم البطش والقهر للاحتفاظ بها. فالحكام لا يلجأون بإلحاح إلى الخطابة السياسية إلا عندما تصبح الشعوب قوة يُحسب لها حساب. ولعل هذا يفسر أنه على مدار أكثر من ألفي عام، خضعت فيها مصر لأشكال مختلفة من الاحتلال، لم تكن الخطابة – بل غالبًا السيف – هي وسيلة التواصل الأساسية بين حكام مصر والشعب المصري.

في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر بدأ تيار الوعي

القومي والوطني في الانتشار في العالم العربي. وكانت الخطابة السياسية والصحافة والتعليم المدني وحلقات النقاش هي وسائل نشر هذا الوعي. وحين ألقى أحمد عرابي عبارته الخالدة "لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا ولن نُستعبد بعد اليوم"، كان يدرك أنه آن الأوان ليكتب المصريون بأنفسهم صفحات تاريخهم. ولم تكن الخطابة السياسية بعيدة عن المشهد؛ بل كانت هي المداد الذي يُسطر هذه الصفحات. فبقدر أهمية سيف الثورة (أحمد عرابي ورفاق السلاح) كانت أهمية خطباء الثورة (عبد الله النديم ورفاق الكلمة والقلم). ومنذ ذلك الحين أصبح للخطابة السياسية دور محوري في الحياة السياسية المصرية؛ وكلما زادت الحرية السياسية زاد هذا الدور ونشط.

ربما كانت الخطابة السياسية أحد أهم أشكال التواصل السياسي في العالم العربي قديمًا وحديثًا. وقد حفظ لنا التراث العربي عشرات الخطب التي أُلقيت في لحظات حاسمة من التاريخ العربي. كما وصل إلينا فيض وافر من الأدلة التاريخية على الدور الذي أسهمت به الخطابة في صياغة الواقع السياسي. لقد كتبت الخطابة بشكل ما فصولا من تاريخ العرب السياسي في عصورهم القديمة. لكنها كتبت فصولا أكثر أهمية من تاريخهم السياسي في عصورهم الحديثة، ولا تزال تُسطر صفحاتٍ مؤثرة من تاريخهم المعاصر.

إذا كانت الخطابة قد سطَّرت شطرًا من التاريخ الحديث والمعاصر؛ فإن تاريخ الخطابة ما زال بحاجة إلى من يُسطره. ويمكن لمثل هذا التأريخ أن يأخذ مسارات متنوعة؛ فقد يهتم مسار بالجانب التواصلي من الخطب السياسية؛ ويكون معنيًا بتقديم معرفة تاريخية بمناسبات الخطب المهمة وطبيعة المتكلم فيها، والجمهور الذي يتلقاها، والوسائط التي استخدمت في بثها، واستجابات الجمهور لها. وهناك مسار آخر يُعنى بتطور أساليب الخطابة ولغتها، ومسار ثالث يركز على التحولات التي طرأت على الوظائف التي تقوم بها الخطابة في الحياة السياسية والمجتمعية، ومسار رابع يتناول عملية تأليف هذه الخطب، وطقوس كتابتها وإلقائها، والعلاقة التي توجد بين الكاتب الذي يكتبها، ورجل السياسة الذي يُلقيها.

لقد اقتصر التأريخ للخطابة عادة على مجرد التأريخ لحياة الخطباء وخطبهم؛ لكننا ندرك أن تاريخ الخطابة أكبر وأشمل من ذلك بكثير. فتاريخ الخطابة هو تاريخ الجمهور الذي يتلقى الخطب والمجتمعات التي يتم فيها إنتاجها وإلقاؤها وتلقيها، وتاريخ كُتَّاب الخطب الذين يسطرونها، وأخيرًا تاريخ الخطباء الذين يُلقونها. هذا الإدراك للأوجه المختلفة لتاريخ الخطابة هو ما سوف يوجِّه خطة هذا الكتاب.

يقدم الفصل الأول من الكتاب تأريخًا موجزًا للخطابة السياسية

في مصر في القرن العشرين وأوائل القرن الحادي العشرين؛ يستعرض خصائص الخطابة في العصرين الملكي والجمهوري ويقارن بينهما؛ مركزًا على أثر تغير نوعية جمهور الخطب السياسية، وتغير الوسائط التي يتم نقل الخطب بواسطتها في تغير الخطابة السياسية. ثمَّ يوضح العلاقة بين الخطابة والحياة السياسية والاجتماعية في مصر على نحو عام، والعلاقة بين الحراك السياسي وازدهار الخطابة السياسية على نحو خاص. وفي سياق ذلك تُصاغ بشكل موجز بعض الملامح المميزة للأسلوب الخطابي لأهم الخطباء المصريين في العصر الحديث.

يدرس الفصل الثاني استجابات الجمهور في واحدة من أشهر الخطب في القرن الحادي والعشرين، هي الخطبة التي ألقاها الرئيس الأمريكي باراك أوباما للعالم الإسلامي، واختار جامعة القاهرة منبرًا لها. وأركز في هذا الفصل على التعليقات المكتوبة التي سجلتها شريحة من المستمعين للخطبة عبر الإنترنت. وأستخدم في هذا التحليل إجراءات تحليل وأفكار مستمدة من بلاغة الجمهور.

يختص الفصل الثالث بدراسة عملية تأليف الخطب السياسية، وهي ظاهرة لم تنل ما تستحقه من الدراسة والاهتمام حتى الآن. يكشف الفصل عن الدور الذي قام به كُتَّاب الخطب التي ألقاها عبد الناصر والسادات ومبارك في صياغة شكل الحكم والسياسة

المصرية على مدار ستين عامًا. كما تُدرس أشكال الخلاف الذي كان يظهر أثناء عملية الكتابة بين كُتَّاب الخطب والحكام؛ وكيفية التعامل معه، وتأثيره على الخطابة السياسية في ذلك العصر. ويتضمن الكتاب إضافة إلى قائمة المصادر والمراجع ملحقًا يحتوي مختارات مكتوبة من أهم الخطب التي دُرست فيه.

الفصل الأول

جمهور الخطابة السياسية من الصحيفة إلى اليوتيوب

مصر نموذجًا

يوشك عُمر الخطابة السياسية الوطنية في العالم العربي الحديث أن يقترب من قرن ونصف. فمنذ سبعينيات القرن التاسع عشر أصبحت الخطابة ملمحًا بارزًا من ملامح الحياة السياسية المصرية. ولأن المجتمع المصري شهد بعد حركة يوليو 1952 تحولات جذرية، أثَّرت بعمق على أشكال التواصل السياسي؛ فإننا سوف نُعنى في هذا الفصل بدراسة جمهور الخطابة السياسية بين عصرين؛ الملكي والجمهوري. فالخطابة السياسية في مصر الجمهورية تختلف عن الخطابة السياسية في مصر الملكية من حيث السياقات والوظائف والجمهور المستهدف، والوسائط المُستخدمة في نقلها وكذلك اللغة

والأسلوب. وسوف نحاول تحديد سمات الخطابة السياسية في مصر الحديثة وجمهورها من خلال تتبع التحولات التي طرأت في هذين العصرين.

الخطابة السياسية في عصر الجماهير الحاشدة

في آواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت الخطابة السياسية شديدة التأثير في المجتمع المصري. كان عبد الله النديم قبيل الثورة العرابية وأثنائها قد أعاد للخطابة السياسية مجدها الغابر، ودورها في حفز المصريين على الدفاع عن بلادهم، وفي إثارة عاطفتهم الوطنية. وحين بزغ مصطفى كامل في سماء مصر كشمس ساطعة، أشعلت خطبه جذوة حب مصر، والتعلق بالاستقلال، ورسخت قيمة مقاومة الاحتلال بوصفها القيمة الوطنية الأجل. وهي مهمة واصلها بفاعلية رفاق مصطفى كامل وعلى رأسهم الوطني العظيم محمد فريد، وجيل ثورة 1919 من الزعماء المصريين، وعلى رأسهم سعد زغلول.

كانت الخُطب السياسية لهذا الجيل تُنقل إلى جماهير مختلفة عبر وسائط متعددة لكنها كانت محدودة الانتشار. فقد كانت تُلقى شفاهة في جماهير محدودة العدد – لا تتجاوز بضعة آلاف – بسبب عدم وجود مكبرات للصوت أو ضعف كفاءتها. لم تكن تقنيات

التواصل الجماهيري مثل الإذاعة والتليفزيون متاحة لنشر الخطب السياسية؛ وكانت الصحف هي الوسيلة الأساسية لإطلاع الجماهير على الخطب السياسية التي لا يستطيعون حضور وقائع إلقائها. وقد أولت الصحف المصرية في ذلك الزمان اهتمامًا كبيرًا لنقل وقائع إلقاء هذه الخطب واستجابات الجماهير لها. وهكذا كانت الصحف والحضور المباشر هي وسائل نقل الخطب إلى الجماهير. وقد أضيف إليها في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين الإذاعة المصرية التي عُنيت ببث خطب الملك بشكل خاص.

إذا وضعنا في الحسبان أن أغلبية المصريين في ذلك الوقت لم تكن تعرف القراءة والكتابة، وأن أغلب القرى المصرية والمدن الصغيرة لم تكن تصلها الصحف، وأن جهاز الراديو في هذه الفترة كان ترفا لا يمكن إلا للأثرياء الحصول عليه؛ فسوف يتأكد لنا أن مدى انتشار الخطب السياسية كان محدودا بالقياس لما سوف يكون عليه الحال في عصر ثورة الاتصالات والتعليم في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

على العكس من الانتشار المحدود نسبيًا للخطب السياسية في مصر الملكية فإن الخطب السياسية أصبحت في متناول كل المصريين في مصر الجمهورية. وكان الفضل في ذلك يعود بشكل مباشر إلى تطور تكنولوجيا الاتصال. فقد أدى الإنتاج المكثف

لأجهزة الراديو إلى رخص أثمانها، ومن ثم أصبح الحصول عليها متاحا لمعظم المصريين، كما انتشر التليفزيون في بيوت الطبقة العليا والوسطى. ومن ناحية أخرى، تزايد عدد المتعلمين بعد تطبيق سياسة مجانية التعليم، وبذلك ازداد عدد المصريين القادرين على متابعة هذه الخطب وما تثيره من تحليلات وآراء في الصحف والمجلات. وحاول النظام الناصري القيام بنهضة حقيقية في القرى المصرية تزامنت مع حرص كبير على أن يكون الخطاب السياسي للنظام في متناول الفلاحين والعمال في البيئات الفقيرة أو البعيدة عن العاصمة. هذه العوامل جميعا أدت إلى وصول الخطابة السياسية إلى المصريين في أطراف القرى والكفور والنجوع. وهكذا انتقلت الخطابة السياسية المصرية من عصر الجماهير المحدودة إلى عصر الجماهير الحاشدة.

الخطابة السياسية في مصر الملكية

كانت الحياة السياسية في النصف الأول من القرن العشرين تزدحم بحركات وقوى وتيارات سياسية متباينة ومتفاعلة. كانت جميعها تحرص على التواصل مع الشعب من ناحية وعلى التواصل فيما بينها من ناحية أخرى. وكان من الطبيعي أن تكون الخطابة السياسية إحدى وسائل هذا التواصل. كان القصر الملكي أحد هذه القوى، فقد اعتاد الملك أن يُلقي خطبًا مناسباتية للشعب

المصري؛ أهمها "خطبة العرش"، في افتتاح الدورة البرلمانية كل عام. كما كان الملك فاروق خاصة يُلقي خطبًا في بعض المناسبات الدينية مثل بدء السنة الهجرية، والمولد النبوي، تُنقل عبر الإذاعة المصرية.

على الرغم من أن الملك كان يشغل رأس السلطة السياسية؛ فإن الطابع شبه الديمقراطي للحياة السياسية المصرية في تلك الفترة سمح بظهور قوى سياسية أخرى، ربما كانت أكثر تأثيرا ونفوذا من القصر والملك. ويأتي على رأس هذه القوى الأحزاب الوطنية وأهمها حزب الوفد، الذي كان حزب الأغلبية حتى عام 1952. وعلى الرغم من أنه كان يتولى السلطة على فترات متقطعة، فإنه كان واسع التأثير في مجمل الحياة السياسية. وكانت الخطابة أبرز أشكال التواصل بين حزب الوفد والشعب المصري منذ تأسيسه، كما اشتهر بعض زعمائه وأعضائه ببراعتهم الخطابية؛ خاصة الزعيم الراحل سعد زغلول الذي كان نموذجا يُحتذى في بلاغته في تلك الفترة. وقد جمع الأستاذ محمود فؤاد بعض خطب سعد زغلول، ونشرها في كتاب "مجموعة خطب سعد باشا زغلول الحديثة" في عام 1924.

إلى جانب الملك والوفد، كانت توجد قوى سياسية أخرى تسعى لتحقيق تواصل سياسي مع طوائف الشعب المصري؛ كان من أهمها

حركة الإخوان المسلمين والتنظيمات اليسارية التي كانت تعمل في أوساط الطلبة والمثقفين والعمال. فقد كانت الخطابة الدين–سياسية هي أبرز وسائل التأثير التي استخدمتها جماعة الإخوان المسلمين للدعوة لنفسها. وكان الإمام حسن البنا متكلما بليغا، يمتلك قدرات متميزة على إقناع المستمعين والتأثير فيهم. ويصف الشيخ علي الطنطاوي أسلوب خطابته بقوله: "وهو في خطبته التي يلقيها كما تُلقى الأحاديث بلا انفعال ظاهر، ولا حماسة بادية، من أبلغ من علا أعواد المنابر، تفعل خطبه في السامعين الأفاعيل وهو لا ينفعل، يبكيهم، ويضحكهم، ويقيمهم، ويقعدهم، وهو ساكن الجوارح، هادئ الصوت، يهز القلوب ولا يهتز"[1].

على الجانب الآخر كانت الخطابة السياسية وسيلة من الوسائل التي استخدمتها التنظيمات اليسارية لتحريك الجماهير. وتحكي لطيفة الزيات – إحدى أبرز اليساريات المصريات في أربعينيات القرن العشرين – في سيرتها الذاتية كيف كانت "تُلقي الخطب الرنانة على سلالم إدارة جامعة (القاهرة)، وعلى عتبة كلية الحقوق، وعلى منبر قاعة الاحتفالات، وعند نصب الشهيد عبد الحكيم الجراحي... إلخ". كما تتحدث عن التأثير الذي مارسته الخطابة السياسية عليها بوصفها امرأة

(1) نقلا عن: شاهين، محمد علي. أعلام الصحوة الإسلامية. ج1، ص 131. نسخة إلكترونية على الموقع الآتي: http://www.alghoraba.com/trajem/13_alBana.htm، تاريخ الدخول 1 يونيه 2009. لم أستطع العثور على كتاب يجمع خطب الإمام البنا.

مصرية؛ تقول "من عباءة الوصل الجماهيري ولدتُ، ومن الدفء والإقرار الجماهيري تحولتُ من بنت (..) إلى هذه الفتاة المنطلقة القوية الحجة، التي تعرف كيف تأنس للجماهير المقرَّة، وكيف تتصدى لرفض الجماهير، تواتيها القدرة على الإقناع كما تواتيها القدرة على التنفس"[1].

إن تنوع القوى السياسية التي تعمل في حقل التواصل السياسي يؤدي إلى تنوع الخطابات السياسية التي توجد في المجتمع. فلكل حركة سياسية قاموسها اللغوي وأساليبها الخاصة في الحجاج والإقناع والتأثير؛ باختصار لكل قوة سياسية لغتها وخطابتها وبلاغتها. تستند لغة جماعة الإخوان المسلمين إلى التراث الديني، وتميل إلى الحجاج بالنصوص المقدسة وتحتفي بالطقوس الخطابية، وتستخدم لغة عاطفية قائمة على الترهيب والترغيب، تحتفي بأدوات التوكيد وأساليب المبالغة التي تنسجم مع دعوى امتلاك الحقيقة، ونبرة اليقين التي تشيع في خطاب أعضائها، والنزعة التراتبية التي تعبر عن نفسها بوضوح من خلال إيثار أفعال الأمر والنهي.

هذه اللغة التي استخدمها الإخوان في إنتاج ذواتهم، وتمييز أنفسهم كجماعة عن التيارات السياسية الأخرى تختلف عن لغة

(1) انظر، الزيات، لطيفة. (2004). أوراق شخصية. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة. ص 151 – 152.

حزب الوفد التي تشكل معجما ليبراليًا يحتفي بمفردات المواطنة والمساواة، ويختار الحجاج العقلي لا النصي. فقد كان الوفد في معظم فتراته يتحدث لغة المصالح لا لغة الترهيب والترغيب. ومن المؤكد أن لغة حزب الوفد ولغة الإخوان المسلمين تختلفان إلى حد التنافر مع لغة التنظيمات اليسارية التي تتكئ على تراث ماركسي، وتحتفي بمفردات ثورية اشتراكية، ويستخدم المنتمون إليها في حجاجهم نصوصًا لم يحل نقدهم لها دون تقديسها. كما تستخدم لغة ماركسية تعلن عن الذات بأكثر مما تسعى للتواصل مع الآخرين.

لأن هذه القوى كانت في حالة تفاعل وتنافس –وربما تصارع– دائبة، فإنها ظلت تسعى لتطوير لغتها وخطابتها لكي تصبح أكثر فعالية وتأثيرًا. وهو ما أدى بدوره إلى تطوير دائب في أدوات التواصل السياسي التي تستخدمها. وهكذا فقد كان الوصل بين القوى السياسية والجمهور في صالح تنوع الخطابة السياسية وثرائها. لكن هذا الوصل بين الحركات والتيارات السياسية المتباينة وجماهير المصريين سرعان ما انقطع بعد 1952. فقد حُجب الجميع عن دفء الجماهير وإقرارها ليحل عصر من هيمنة الصوت الواحد على المشهد السياسي المصري.

الخطابة السياسية في ظل حركة يوليو

لقد قضت حركة الضباط الأحرار على ثراء المشهد السياسي المصري، واستطاعت في سنوات قليلة أن تتخلص من كل القوى السياسية المناوئة التي وجدت نفسها إما مضطرة للذوبان داخل النظام القائم أو الانسحاب إلى العمل السري أو الانزواء المطلق. هذه الاختيارات جميعا كانت تعني بشكل غير مباشر القضاء على أنشطة التواصل السياسي بينها وبين الجماهير. فلم تعد الخطابة السياسية ممكنة في عصر تكميم الأفواه، كما أنها لم تعد مفيدة في سياق العمل السري. وهكذا هيمن صوت واحد على الخطابة السياسية، هو صوت نظام يوليو. ولأن حركة يوليو لم تتوقف عن خوض المعارك، ولأنه (لا صوت يعلو فوق صوت المعركة) فقد فُرض الصمت على الجميع. وظلت الخطابة السياسية لما يزيد عن العقدين من الزمان أسيرة الصوت الواحد الذي لا يعلو عليه أو يدانيه أو يعيش إلى جواره صوت آخر. وتحت مظلة هذا الصوت الواحد هيمنت ما يمكن تسميتها لغة الخطاب الناصري على لغة السياسة في مصر في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. ومنذ أواسط الستينيات كان من الواضح أن هذه اللغة التي تمزج بين معجم يساري شبه ماركسي وآخر قومي، وتمتلئ بالشعارات، قد دخلت في حالةٍ من التحجر والجمود تبدت في شيوع العبارات

الجاهزة والتعبيرات المصكوكة، وتحولت – بدورها – إلى إعادة إنتاج الذات، دون رغبة حقيقية في التواصل مع الآخر. وتبدو هذه النهاية منطقية تماما بعد أن أزاحت "الآخر" نفسه من الوجود سياسيًا، وحولته إلى "مسألة أمنية" تتواصل معه المباحث والأجهزة الأمنية بالكرباج لا اللغة.

الخطابة الحزبية والخطابة الرئاسية

منذ بزوغ فكرة الحزب الوطني على يد مصطفى كامل أواخر القرن التاسع عشر، مارست الأحزاب المصرية دورًا أساسيًّا في المطالبة بالاستقلال والتحرير من ناحية، والسعي نحو تطوير المجتمع وتحديثه من ناحية أخرى. وربما كان الدور الذي قام به حزب الوفد المصري في الحياة السياسية المصرية في النصف الأول من القرن العشرين شاهدا على عِظَم هذا الدور وأهميته. وقد كانت الخطابة السياسية أداة أساسية لتحقيق هدفي الاستقلال والتحديث. وربما لم يكن غريبًا أن بلاغة مصطفى كامل ومهاراته الخطابية الفائقة كانت سلاحه الأساسي في مقاومة الاستعمار، وفي بث الوعي بالقضايا الوطنية سواء داخل مصر أو خارجها. وبالمثل كانت قدرات سعد زغلول الخطابية قوة حقيقية في تحقيق الاستقلال والتحديث.

كان الحزب الوطني وحزب الوفد متغلغلين في حياة الجماهير المصرية. كانت جموع الشعب تتابع خطب زعمائهما ممن مثلوا قلب الأمة النابض ولسانها الناطق. وهكذا تعاظمت شهرة زعماء هذه الأحزاب، وتعاظم التقدير الذي حظيت به خطبهم. وشغلت هذه الخطب بالفعل حياة المصريين، ولم تستطع القوى الأخرى الموجودة على الساحة السياسية – مثل الملك والإنجليز – مجاراتهما في مجال الخطابة. لقد كان العصر هو عصر خطباء الأحزاب.

لم يعد الأمر كذلك بعد يوليو 1952؛ فقد بدأ بزوغ عصر الرئيس الخطيب، وأصبحت الخطابة السياسية عملا رئاسيًا من الدرجة الأولى. فخطب الرئيس هي التي تحظى بفرص البث الواسع للجماهير عبر الإذاعة والتليفزيون، وهي التي تحظى بتغطيات الصحف وتحليلاتها. ويمكن القول ببعض الاطمئنان إن مؤسسة الرئاسة في مصر بعد يوليو 1952 "احتكرت" الخطابة السياسية، فلم يكن من المسموح به في هذه الفترة أن يظهر أشخاص غير الرئيس قادرون على النفاذ إلى الجماهير، ويمتلكون كفاءة تواصلية تتيح لهم التأثير على الجماهير وقيادتها؛ لأن ظهور مثل هؤلاء الأشخاص ربما يفتح الباب أمام صراع على السلطة المطلقة التي كان يمتلكها رؤساء مصر منذ 1952. وقد كان هذا التخوف وراء الاستبعاد المتواصل لكل السياسيين ممن يتمتعون بملكة التأثير الواسع في الجماهير، أو ممن يحظى كلامهم بشعبية جارفة. واقترن حرص

رؤساء مصر على أن يصبحوا هم وحدهم خطباؤها، ببزوغ عصر احتكار الرؤساء للخطابة السياسية.

هذه التحولات لا تعني أن هناك انقطاعًا كاملا في الممارسات الخطابية بين مصر الملكية والجمهورية، بل لعل نقاط الاتصال بين العصرين لا تقل – في الواقع – أهمية عن نقاط الانفصال. فظواهر مثل الجمع بين العامية والفصحى، والحرص على تمييز هوية الخطيب والجماعة التي يمثلها عن هوية المعارضين أو المخالفين، والميل للمبالغات الخطابية، والتأثير العاطفي وغيرها، هي ظواهر مشتركة بين خطب ما قبل يوليو وما بعدها.

إن وضع الخطابة في العصر الجمهوري في موازة العصر الملكي لا يعني عدم وجود تمايزات بين الخطابة السياسية في الحقب الجزئية المكونة للعصرين. فهناك اختلافات جذرية – على سبيل المثال – بين الخطابة في عهد عبد الناصر وعهد السادات تصل إلى حدٍّ يمكن التمييز عنده بين بلاغة ناصرية وأخرى ساداتية. والبلاغتان وإن كانتا تشتركان في الكثير؛ فإنهما تختلفان في أشياء أكثر. فلغة السادات المشبعة بالمفردات الدينية والأخلاقية، والتي تستعين بمفردات وتعبيرات ريفية قروية تختلف عن لغة عبد الناصر التي يندر فيها الاستعانة بالمفردات الدينية، والتي تحتفي بمفردات الطبقة المتوسطة في المدن وتعبيراتها. كما أن طريقة

أداء السادات لخطبه بما فيها من وقفات صوتية وتلعثمات واستخدام متقن للنبر خاصة في سياق التهكم أو السخرية أو التهديد تختلف عن طريقة أداء عبد الناصر الهادئة في معظم الأحيان والتي لا تميل إلى الإبهار بالأداء الصوتي بقدر ما تستغل الطاقة الهائلة للتواصل البصري والحضور الطاغي للجسد الذي يستوعب محيطا كبيرا.

وأخيرا، فإنه ليس أدل على شدة الاختلاف بين الحقب الجزئية المكونة لعصري ما قبل يوليو وما بعده من أن الفارق بين الخطابة عصر مبارك والخطابة في عصر عبد الناصر ربما لا يقل – إن لم يزد – عن الفارق بين الخطابة في عصري فاروق وعبد الناصر. وربما يرجع ذلك إلى ارتباط الخطابة السياسية على نحو وثيق بالحراك السياسي والاجتماعي على نحو ما سأوضحه في الصفحات الآتية.

الخطابة السياسية والحراك السياسي في مصر

الخطابة السياسية نشاط يتأثر بشدة بالحياة السياسية للمجتمع. فحين تكون الحياة السياسية فوارة وعفية وثرية تكون الخطابة السياسية فوارة وعفية وثرية. أما حين يسود الركود السياسي فإن الخطابة السياسية تدخل بدورها طور الركود، وتعاني من ضعف

القيمة وتراجع التأثير، خاصة حين يقترن الركود السياسي بداء الديكتاتورية المطلقة. وليس أدل على قوة هذا الارتباط من مقارنة الخطابة السياسية في فترتين متباينتين تباينًا واضحًا من جهتي الحراك السياسي والثراء المجتمعي؛ الأولى هي الفترة قبيل ثورة 1919 وأثنائها وبعدها والثانية هي عقد تسعينيات القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

تُعد ثورة 1919 أهم الحركات الشعبية في مصر الحديثة. وقد شهدت الحياة السياسية في مصر في تلك الفترة ثراءً غير محدود، تمثَّل في المشاركة الشاملة لشرائح المصريين وطوائفهم وجماعاتهم في حركة الاستقلال. فقد انخرطت مصر بأكملها في فورة سياسية غطت مدنها وقراها ونجوعها. هذه الفورة كانت الخطابة السياسية من أحد أهم وسائل تحقيقها ومن أبرز تجلياتها في الوقت ذاته. فقد اشتعلت مصر خطبًا؛ وتحولت ساحات المساجد والكنائس والجامعات والمدارس والميادين وبيوت زعماء الحركة الوطنية إلى ميادين للخطابة المحفِّزة للشعب والمسانِدة للثورة. لم تكن الخطابة السياسية حكرا على أحد؛ فقد اشترك فيها المسلمون والأقباط، الرجال والنساء، تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات، المفكرون والبسطاء، السياسيون والمواطنون العاديون. وهكذا شهدت مصر في تلك الفترة بعض أفضل المشاهد نصاعة في تاريخها؛ ففي حين كان رجال الدين الإسلامي يخطبون في الكنائس،

كان رجال الدين المسيحي يخطبون في المساجد. "فقد اعتاد القمص مرقص سرجيوس – أثناء ثورة 1919 – أن يخطب عن الوحدة الوطنية من فوق منابر المساجد، كما اعتاد الشيخ محمود أبو العيون أن يخطب عن الوحدة الوطنية في الكنائس"، بل إنه "ذات مرة ظل القمص مرقص يخطب هو وعلي الغاياتي أربع ساعات متوالية على منبر جامع ابن طولون"[1].

هذه الأحداث كانت ذات تأثير كبير في ازدهار الخطابة السياسية، وفي تحولها إلى أداة للوعي الجماهيري. ويحكي فتحي رضوان – أحد أبرز الشخصيات الوطنية في القرن الماضي– بعض ذكرياته عن خطابة تلك الأيام الخالدة قائلا: "كنت أخرج من بيتنا خفية حتى أصل إلى ميدان السيدة زينب فأدخل إلى ركن في المسجد بجانب "المبلغة" وهي المكان الذي يجلس عليه القارئ ليقرأ ويقف فوقها الخطباء. وهناك تلقيت الدروس الأولى في الخطابة الوطنية (..) كان يقف على "المبلغة" أكبر وأشهر الخطباء في مصر، ثم كان التصفيق المدوي، في ذلك الزمان"[2].

(1) انظر، مؤنس، حسين. (2005). دراسات في ثورة 1919. دار الرشاد، القاهرة، ط2 ص 168 – 175.

(2) نقلا عن حوار غالي شكري مع فتحي رضوان؛ انظر، شكري، غالي. 1990. المثقفون والسلطة في مصر. دار أخبار اليوم، القاهرة، ص 179 – 180.

الخطابة السياسية في زمن الركود السياسي

على خلاف ذلك شهدت الحركة السياسية في مصر في العقدين الماضيين حالة ركود سياسي على المستويين الداخلي والخارجي؛ نتيجة القيود المفروضة على الحياة السياسية داخليًا، وتراجع التأثير المصري عربيًا وإفريقيًا وعالميًا لصالح قوى إقليمية أخرى. هذا الركود السياسي أدى إلى تدهور تأثير الخطابة السياسية في الحياة السياسية المصرية، وتراجُع إقبال الجماهير على مشاهدتها أو الاستماع إليها. كما تتجلى حالة ركود الخطابة السياسية في تراجُع اهتمام الصحافة المستقلة أو الحزبية بتغطية وقائعها أو تحليل نصوصها على نطاق واسع وشامل؛ إذ غالبا ما يقتصر هذا الاهتمام على ما يسمى بالصحف القومية. وهكذا بعد أن كان المواطنون العاديون يتابعون بشغف، وينصتون بإمعان لما يقوله زعيم الأمة (سعد زغلول) أصبح أحفادهم – في العقود الثلاثة الأخيرة – يديرون مؤشر الراديو أو يغيرون قناة التليفزيون حين يصادفون خطبة سياسية.

في السنوات العشر الأخيرة من حكم مبارك تراكمت عوامل كثيرة أدت إلى ضعف تأثير خطبه السياسية. فلم تعد خطبه ميدانا للإعلان عن قرارات مهمة، أو أفعال جديدة؛ بل اتخذت طابع الطقوس الشكلية. كما تراجعت مصداقية خطابه السياسي نتيجة

الفرق الشاسع بين ما تقوله الخطب، وما يوجد على أرض الواقع. فقد واصلت الخطب التغنى بالديمقراطية والحرية والفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية والرفاهية والشفافية. بينما كان المجتمع يعاني من هيمنة الحزب الواحد ومن غياب إمكانيات التداول السلمي للسلطة ومن سيطرة السلطة التنفيذية وتراجع مستويات المعيشة للمواطن العادي وطغيان الفساد.

أحد الأسباب المهمة لعزوف المصريين عن الاهتمام بخطب مبارك هو تراجع قدراته الأدائية. فقد أصبح يعتمد بشكل شبه كامل على النصوص المكتوبة، ولا يخرج عن النص إلا نادرًا. وكثيرًا ما كان يترك حينها انطباعًا سيئًا نتيجة فظاظة تعليقاته ومباشرتها الشديدة؛ مثل تعبيره الشهير "خلِّيهم يتسلوا"، تعليقًا على سعي معارضين مصريين لتأسيس برلمان بديل عن البرلمان المزور في 2010. وهكذا تراجعت مساحة التواصل البصري الذي يزيد من الحميمية بينه وبين الجمهور، في مقابل تزايد الاستخدام غير المحسوب للإشارات الحركية شبه العدوانية لليد، مثل التلويح العدواني بالإصبع. وصاحب ذلك جمود في لغة السياسة، فقد أصبح ما يقال اليوم شبيه بما قيل بالأمس، وما سيقال غدًا. وبدت بعض الخطب وكأنها استنساخ لخطب أخرى. وعلى الرغم من أن خطب مبارك كانت تحتشد بفقرات كاملة يخصصها لمدح نفسه وإنجازاته، فقد أصبحت خطبه في العقد الأخير أقصر من تلك التي كان يلقيها

في الثمانينيات والتسعينيات، وتأتي على فترات زمنية أبعد.

كانت الشيخوخة تضرب بجذورها، ليس في قلب النظام فحسب، ولكن في روح الخطب أيضًا. وكان المصريون في أغلبهم لا يبدون اهتمامًا يذكر بما يحدث على مسرح الخطاب السياسي وكانت الخطب السياسية بالنسبة لهم تبدو وكأنها طقس مسرحي ممل لا علاقة لهم به؛ إذ يصفق جمهور يعرفونه جيدًا لرئيس يعرفونه جيدًا، أثناء كلام يعرفونه جيدًا. والجميع يدرك أن الأمر ربما لا يكون على درجة الجدية التي يبدو عليها.

لكن هذا الحال سرعان ما تغير كلية مع مطلع فجر ثورة 25 يناير. وعادت الخطب السياسية تستحوذ من جديد على اهتمام حقيقي طاغي من الرئيس والشعب المصري على حد سواء. فمنذ عصفت أعاصير الثورات الشعبية بأنظمة الاستبداد العربي في شتائه الأخير، أصبح الخطاب السياسي الرسمي من ناحية والخطاب الشعبي الاحتجاجي من ناحية أخرى يمارسان لعبة البينج بونج. فالشعوب الحالمة بالحرية تطلق مظاهراتها وخطاباتها في مواجهة الرئيس المستبد، الذي يرد بدوره بخطبة رئاسية، يحشد فيها طاقاته البلاغية، ويوظف قدراته الأدائية وسيطرته على السياق، لكي يُجهِض الثورة البازغة. بدورهم، يتلقف المحتجون الخطبة رافضين، ويردون بمزيد من التظاهرات والاعتصامات وبخطاب

أكثر ثورية، فيعاود الرئيس الكرَّة بخطبة تراهن على تقنيات تأثير وإقناع أكثر كثافة وتلاعبًا.

وهكذا بمثل ما كانت الثورة تتضمن صراعًا بين القوة المادية للنظام الحاكم والقوى المادية للثوار، كانت تتضمن كذلك صراعًا بين خطابات كل منهما. وكان نجاح النظام الحاكم في الاحتفاظ بسلطته أو نجاح المحتجين في التخلص منه يتوقف على مجموعة معطيات من أهمها قدرة خطاب كل منهما على استقطاب الشريحة الأكبر من الجمهور الذي لم يحدد مواقفه بتأييد الاحتجاج أو التحفظ عليه. هذا الجمهور الصامت عادة ما يكون هدف خطب الحاكم وهدف خطاب المحتجين على السواء. وإذا أفلح المحتجون في استقطابهم تحول الاحتجاج إلى ثورة، وإن فشلوا تحول الاحتجاج إلى "فتنة".

وفي الواقع فإن إحدى خطب الرئيس المصري السابق، خطبته الثانية على وجه التحديد، كانت على وشك إجهاض الثورة المصرية؛ فقد استطاعت دفع شريحة ضخمة من المصريين للتعاطف مع مبارك. وقد استخدمت لتحقيق ذلك تقنيات بالغة الكفاءة في التلاعب النفسي والعقلي بالجماهير؛ من أهمها استخدام بلاغة أبوية، تقدم الرئيس بوصفه أبًا للمصريين من غير المقبول مخالفته وإجباره على الاستقالة، كما أنه من غير الأخلاقي والديني عقوق الأب ومن غير الممكن التبرؤ منه، وكذلك استثارة الذاكرة الخطابية

للمصريين التي تمتلئ بآلاف التلفظات التي تجعل من الرئيس نصف نبي، يُفني حياته لمصالح بلده، واللعب على بعض القيم الاجتماعية المصرية المحببة مثل مسألة التمسك بأرض الوطن، ورفض مغادرتها، والتشبث بالموت على ترابها.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك الأداء البلاغي الجيد للخطبة؛ خاصة استخدام الصوت الخافت، ونعت المحتجين بصفات سلبية مثل غياب التعقل، والتضحية بمصالح الوطن لأهداف شخصية. ولولا أن أحداث معركة الجمل كشفت تناقضات هذا الخطاب السياسي، وعرت الفجوة الشاسعة بين ما تقوله اللغة، وما تظهره الحقائق لما سارت الأمور على النحو الذي صارت إليه.

الخطابة السياسية في ثورتين: 1919 و25 يناير

لم يكن ملعب الخطب السياسية حكرًا على لاعب واحد هو نظام مبارك؛ فقد كان للثورة خطباؤها أيضًا. لقد تحولت ميادين مصر – وميدان التحرير على وجه الخصوص – إلى ساحة واسعة للكلام العام. وعلى مدار الساعة اعتلى منصات الميدان مئات الخطباء، من مختلف الأعمار والانتماءات. وكانت صيحات إعجاب الجماهير الحاشدة أو تصفيقهم أو تكبيرهم وتهليلهم علامات استحسان لا تنتهي إعجابًا بهؤلاء الخطباء. ومع أن معظم خطباء الميدان كانوا من عامة الناس، ممن لم يتمرسوا على مهنة الكلام، فقد استقبل

الميدان أيضًا خطباء محترفين سواء من رجال السياسة أو رجال الدين. وعلى أية حال فقد كانت خطب الميدان، وقودًا لا ينفد للثورة. وهي حالة تذكرنا بحدث تاريخي أقدم قامت فيه الخطابة السياسية بدور عظيم في مقاومة الاستبداد والاستغلال؛ وإن كان مصدره هذه المرة هو المحتل الأجنبي وليس المستبد الداخلي؛ وبالطبع فإن هذا الحدث هو ثورة 1919.

فقبل الحرب العالمية الأولى بلغت الحركة الوطنية لمقاومة الاستعمار قدرا عاليًا من النضج بعد أن حمل المناضل الذكي مصطفى كامل على عاتقه مهمة إذكاء الشعور الوطني المصري داخليًا، والتشهير بفظائع الاحتلال البريطاني خارجيًا. وقد أفاد من خطابة الثورة ممثلة في خُطب أحد أهم المناضلين المصريين في تاريخها المعاصر؛ عبد الله النديم خطيب الثورة وأديبها. غير أن ثورة 1919 ربما كانت الحدث الشعبي الأهم في تاريخ المصريين في القرن العشرين، والمرحلة الأكثر تأثيرا في سياق سعيهم للاستقلال. ومن هنا تبدو ثورة 1919 لحظة بالغة الخصوصية في تاريخ مصر المعاصر، وعادة ما تقترن في الأذهان بأهم رجالها؛ الذي تحول إلى رمز الثورة، زعيم الأمة: سعد زغلول.

نادرة هي اللحظات التي تتوحد فيها أمة بأكملها في شخص واحد، يصبح قلبها ولسانها وربما يدها أيضًا. فالشعوب جوهرها التنوع والتعدد والاختلاف. والسياسة جوهرها التنازع؛ لأن غايتها

المصالح، والمصالح المتعارضة نادرًا ما تتيح الفرصة للإجماع على شخص أو فعل. ومع ذلك، فإن كل أمة تعرف أوقاتًا تضيق فيها الاختلافات البينية، وتتزايد مساحة التضامن والتكاتف بين أفرادها وجماعاتها. غالبًا ما تكون هذه الأوقات هي أوقات تحديات شاملة؛ إما نتيجة مخاطر سياسية تفرضها قوى خارجية مهيمنة أو داخلية مدمرة، فتتوحد الذات الوطنية أمام الآخر/العدو، أو نتيجة مخاطر طبيعية تفرضها ظواهر الدمار الطبيعية كالزلازل والبراكين والأعاصير، فتتوحد الذات الوطنية أمام المجهول. وفي مثل هذه الأوقات يكون الأفراد والتنظيمات والجماعات أكثر طواعية للذوبان في كيان أكبر يشعرون أنه يمثلهم، بقدر ما يمثلونه؛ وحين ينجحون في ذلك نصبح أمام ما يُطلَق عليه لحظة تاريخية. ولم تكن ثورة 1919 بهذا المقياس لحظة تاريخية فحسب، بل كانت اللحظة الشعبية المصيرية في حياة المصريين في عصرهم الحديث.

لقد كانت ثورة 1919 لحظة اكتمال الهوية المصرية التي أعلنت عن نفسها ماديًا من خلال الكفاح ضد الاحتلال البريطاني. كما أعلنت عن نفسها خطابيًا؛ في شعارات الثورة وأغنياتها وهتافاتها التي عكست إدراكًا عميقًا لتجلي الوحدة في التنوع. فقد ضمت خطابات الثورة كل علامات التعدد (الديني ممثلا في الإسلام والمسيحية، والنوعي ممثلا في الرجال والنساء، والعُمري، ممثلا في الأطفال والبالغين والعواجيز، والجغرافي ممثلا في الوجه البحري والقبلي

والقاهرة... إلخ)، ولكن في إطار من الوحدة. وأصبحت الثورة هي الوعاء الأشمل الذي يحوي كل التباينات والاختلافات، ويعطيها الفرصة للتعبير عن وجودها والوعي بها، ويوظفها لصالح هدف أسمى من فرديتها. كانت الثورة أشبه بجدارية رُسمت عليها مصر بفلاحيها ومتعلميها، نسائها ورجالها، أطفالها وكهولها. كانت ثريَّةً وعفية فياضة ومتنوعة، متماسكة وموحدة. وفي القلب من جدارية الوطن كان سعد زغلول يجلس وأنظار الجميع متعلقة به.

السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تصنع الأمم زعماءها؟ كيف تدفعهم إلى التطهر والتفاني بل والفناء في كينونتها؟ لم يكن سعد زغلول قبل الثورة الشخصية الأهم من بين الوطنيين المصريين، كما لم يكن الأكثر نقاءً وطهارة سياسية، بل كانت له علاقات متذبذبة مع القصر والإنجليز. حتى على المستوى الشخصي كان يعاني من مشكلات قد يعتبرها البعض الآن – وربما حينها – مشينة مثل إدمان القمار. فكيف حدث هذا الاصطفاء؟

من المؤكد أن سعد زغلول كان رغم التذبذب السياسي والنقائص البشرية يحتفظ بثوابت لم تخطئها بصيرة الشعب، حين اختاره رئيسًا للوفد المصري ووكيلا لهم. ربما كان أهمها هو أنه – وهو المحامي احترافًا – كان المدافع عن مصالحهم في كثير من الأحيان، خاصة إبان انتخابه في الجمعية التشريعية. كما أنه – وإن احتفظ بعلاقات جيدة مع بعض قوى القصر أو ممثلي الاحتلال – فإنه نادرًا ما كان

يُحسب كلية عليها. وأخيرًا فإنني أظن أن انتخاب الأمة لفرد ما لا يحركه أساسًا ما قدمه المرء فيما مضى، بل ما هو على استعداد لتقديمه في الآن والمستقبل. وقد أثبت سعد أنه على استعداد لدفع ثمن المطالبة بآمال الشعب؛ ودفع بالفعل جزءًا من الثمن ممثلا في الاعتقال والنفي. وهكذا فحين يدرك إنسان ما أنه أصبح مناط آمال نبيلة لجماعة من البشر لديهم استعداد لدفع ثمن هذه الآمال، فإنه غالبًا ما يهب نفسه للجماعة. والجماعة بدورها تكون على استعداد لغفران كل أخطائه بل وخطاياه، لتمنحه ميلادًا جديدًا. وهكذا فإن من يرغب في العمل لأجل الوطن، ليس عليه إلا أن يشرع في الطريق، أيًّا كان ما ارتكب في حقه، وحين يخلص هذا العمل فإنه يتيح للوطن ذاته أن يخلقه من جديد.

ترك سعد زغلول تراثًا خطابيًا بالغ الثراء، يحتشد بأنواع أدبية متعددة مثل الخطب السياسية والمذكرات الشخصية والمقال الصحفي ومذكرات الدفاع القانونية والرسائل الرسمية والإخوانية. من بين هذه الأنواع حظيت الخطابة والمذكرات اليومية بالاهتمام الأكبر منه ومن دارسيه. ربما لا يكون هذا مستغربًا إذا نظرنا إلى وظائف كلٍ منهما. فهما معًا تمثلان وسيلتي التواصل الرئيسيتين بين السياسي والجماهير في حالة الخطابة، والإنسان ونفسه في حالة المذكرات الشخصية. وهما في الوقت ذاته تقفان على طرفي نقيض؛ ففي الأولى (الخطابة) يميل المرء إلى قول ما يرغب الآخرون في

معرفته عنه، وربما ما يتشوقون إلى سماعه منه، أما في المذكرات الشخصية فإن المرء لا يكتب إلا لنفسه، لا يعنيه العالم بل الأنا. وليس شاغله هو تقديم المعلومة أو صياغة التوجه والسلوك، بل غايته هي البوح. الخطابة تُشكِّل صورة المرء في العالم الخارجي، والمذكرات تستعيد هذه الصورة وتصححها في العالم الداخلي. وقد كان سعد زغلول مدركًا للمسافة بين ما تنطوي عليه الخطب، وما تقوله المذكرات. وكان مدركًا أن شخصيته سوف تُمتحن كثيرًا حين توضع صورة الذات كما تكشفها المذكرات أمام صورتها كما تصنعها الخطب؛ فأطلق في مذكراته تلك العبارة التي هي أقرب إلى صرخة متفجعة (ويلٌ لي من الذين يطالعون من بعدي هذه المذكرات). وهي عبارة وإن كانت تعكس الألم الذي يعتري الذات حين تُمتحن بالتعري أمام الآخرين، فإنها في الوقت ذاته تعكس إصرارًا على فعل التعرية، فهو يختار شجاعة المواجهة، ولا يهرب من صورة ذاته، ويفعل كما يفعل آخرون؛ ممن أودعوا أوراقهم جوف النار أو بطن الأرض.

هذا التباين في عالمي الخطب والمذكرات ووظائفهما لم يؤثِّر على نحو جذري في أسلوب سعد زغلول. ففي كتاباته ومنطوقاته نستطيع أن نلمس سمات لغوية وبلاغية جلية. فهناك أولا الاقتصاد اللغوي الذي لا يتيح للتطويل أو الإطناب والإسهاب كبير مكان. فعبارته محكمة، وجمله عادة ما تكون قصيرة. وهناك، ثانيًا، هذا

الميل إلى العبارات الحكمية، أو التي تسير في مجراها. وليس من قبيل الصدفة أن الكثير من العبارات التي نحتها سعد زغلول أصبحت جزءا لا يتجزأ من الذخيرة الخطابية السياسية في مصر. وما زال الكثير منها حيًا في شكل عبارات ترصد موقفا سياسيًا كما في عبارته الخالدة "الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة" التي يقرؤها الآلاف من المصريين كل صباح على صدر جريدة الوفد، أو عبارات تلخص موقفًا من العالم بأسره مثل أكثر العبارات المنسوبة إليه هزلية ومأساوية في الوقت ذاته؛ وأشيعها ترددًا بين الألسن: "ما فيش فايدة". وربما كان جمع عباراته الحكمية التي لا تنتمي إلى التاريخ بقدر ما تنتمي إلى البلاغة إضافة إلى تراثنا الأدبي الثري.

كانت المفردات السياسية في تلك الفترة ما تزال تنعم ببعض مصداقيتها، إذ لم تكن لغة السياسة قد تعرضت بعد لهذه الموجة العاتية من تآكل المعاني التي أتت على مصداقية الكلمات، تلك الموجة التي لم تزل تتصاعد منذ سيطرت المؤسسة العسكرية على الحكم، وأممت الخطاب السياسي لصالح قادتها. لم يكن سعد زغلول ممن يشنِّفون آذان الشعب ليل نهار بأنهم يعيشون أزهى عصور الديمقراطية والرخاء والتقدم والشفافية ضاربين عرض الحائط بتجليات الحياة اليومية التي تعكس الديكتاتورية والعوز والتدهور والفساد. ولأن كلماته كانت تؤخذ على محمل الجد، فلم يكن من

المستغرب أن يثير استخدامه لكلمة دون أخرى زوابع سياسية، تشغل سماء السياسة المصرية لأيام وشهور؛ كما حدث في خطبة العرش التي ألقاها في عام 1924، والتي أثارت جدلا سياسيًا عاصفا بسبب استخدامه تعبير "الأماني القومية"، في عبارته: **"الدخول في مفاوضات حرة من كل قيد بقصد تحقيق الأماني القومية بالنسبة لمصر والسودان"**. فقد فهم البعض من تعبير **الأماني القومية** السعي للاستقلال التام لمصر والسودان، أو الاستقلال التام لمصر وبعض الحقوق للسودان. وكُتِبت عشرات المقالات وبيانات تستهدف ضبط دلالة العبارة، وقياس المواقف السياسية للقوى المختلفة استنادًا للدلالة التي تراها للكلمة.

هذه القيمة الكبيرة للكلمة، استعادتها ثورة 25 يناير مرة أخرى. فقد ولدت من رحم الثورة خطابة سياسية جديدة لا تنافق ولا تراوغ، تسمي الأشياء بأسمائها، وتصف كل شخص بما يستحق، وتحطم إرث عشرات السنين من الصمت والمراوغة. قد تبدو هذه الخطابة قاسية خشنة، لكن الثورة كالإعصار تقتلع كل ما هو مزيف وكاذب. لقد سيطرت في العقود الأخيرة خطابات التلاعب والتضليل والكذب، ففقدت المفردات دلالاتها، وغابت المصداقية عن اللغة. والأمل معقود على أن يكون ربيع الثورات العربية بوابة العبور ليس إلى حياة جديدة فحسب بل إلى خطابة سياسية جديدة أيضًا، تستعيد الخطابة فيها صدقها ومصداقيتها.

وأن لا يتحول الربيع إلى خريف تُستعاد فيه سياسات التلاعب والاستبداد الخطابي، حتى لا تكون مآلات المستقبل شبيهة بمآلات الماضي، حين تُتستنخ السياسات نفسها، وإن بوجوه جديدة.

الفصل الثاني

عصر استجابات الجماهير

حالة خطاب أوباما للعالم الإسلامي

منذ ظهور تحليل الخطاب في ستينيات القرن العشرين، تتسارع وتيرة التحولات التي يشهدها هذا الحقل المعرفي المتنامي باستمرار. يتخذ هذا التنامي أشكالا متعددة؛ منها عدم الاقتصار على دراسة الخطابات التقليدية مثل الخطابات السياسية والدينية وخطابات الأعمال ودراسة خطابات حقول من المعرفة والخبرة والممارسة الإنسانية لمْ يؤلَف النظر إليها بوصفها خطابًا مثل العلوم البحتة، والمرض، والرياضة. وفي الوقت الراهن فإن محللي الخطاب يدرسون – تقريبًا – كل أوجه أنشطة التواصل الإنساني؛ الشخصي والمؤسساتي والجماهيري، في جميع السياقات البشرية؛ مثل العمل والمدرسة وأماكن الترفيه؛ وفي كل المجتمعات البشرية تقريبًا على امتداد آرجاء العالم المعروف.

هذا الاتساع الهائل في حقل تحليل الخطاب، توازى مع إعادة صياغة مستمرة لعلاقاته البينية مع العلوم الإنسانية القريبة. وهي علاقة أشبه بعلاقة الجداول والأنهار بالبحيرة الشاسعة التي تصبُّ فيها. فعلوم مثل علم النفس والاجتماع والسياسة والبلاغة والآداب والفلسفة، لها وجود سابق على تحليل الخطاب، وكل منها أشبه بنهر مستقل يتقاطع أو يتماس بين الحينٍ والحين مع غيره من الأنهار/ الحقول المعرفية، لكنه يظل محتفظًا بخصوصيته التي تتجلى في جهازه المفاهيم والاصطلاحي من ناحية، وفي الظواهر التي يحظى بأولوية دراستها من ناحية أخرى. غير أن هذه الأنهار/الحقول لا تسير في طريقها إلى الأبد، بل عادة ما تنتهي لمصب قد يكون بحرًا أو بحيرة. ويمكن القول إن تحليل الخطاب هو أشبه بالبحيرة التي تلتقي عندها مصبات كل العلوم الإنسانية تقريبًا. فهو يستمد معظم جهازه المفاهيمي والاصطلاحي من هذه العلوم؛ لكنه في المقابل يتيح لها شكلا آخر من الكينونة، حيث تعي نفسها بطريقة مختلفة؛ وعلى نحو دقيق فإنه يتيح لها أن تعي نفسها بوصفها خطابًا. إن دراسات الخطاب تقتات بالفعل على منجزات العلوم الإنسانية الأخرى، لكنها تتيح لهذه العلوم – وهو تقتات عليها – أن تكتسب كينونة جديدة؛ تمامًا مثلما تتحول فروع الأنهار الصغيرة إلى بحيرة مترامية.

توازى اهتمام تحليل الخطاب بالخطابات غير التقليدية وتوثيق

علاقاته بالعلوم الإنسانية مع توسع آخر لا يقل أهمية في طبيعة العلامات التي يتم تحليلها. لقد ارتبط تحليل الخطاب في نشأته وبداياته باللغة بوصفها النسق العلاماتي الأهم في التواصل بين البشر. وكان من آثار الدور المحوري الذي لعبته علوم اللغة والتداولية في نشأته، أن اعتبر البعض تحليل الخطاب مجرد مستوى من مستويات التحليل اللغوي، يتم فيه تجاوز وحدة الصوت أو الحرف (التي يدرسها علم الأصوات والصوتيات)، ووحدة الكلمة (التي يدرسها علم الصرف من زاوية البنية وعلم المعجم من زاوية الدلالة)، ووحدة الجملة (التي يدرسها علم النحو)، ووحدة النص (التي يدرسها علم النص) إلى وحدة الخطاب؛ أي الملفوظات في واقع تداولها الفعلي؛ حيث تُدرس ظواهر إنشاء الخطاب وإنتاجه واستهلاكه في لحظة تاريخية وسياق اجتماعي محدد. غير أنَّ هذا لم يكن صحيحًا ولا نافعًا. فعلى الرغم من أن علم اللغة قد أمد تحليل الخطاب بالفعل بقائمة ثرية من المفاهيم ولائحة مفيدة من أدوات التحليل؛ فإن تحليل الخطاب ليس مجرد مستوى من مستويات التحليل اللغوي؛ بل هو بالأحرى شكل من أشكال الدراسة الاجتماعية، يتحرك في مناطق تلاق علم اللغة والفلسفة والبلاغة وعلم النفس المعرفي وإثنوغرافيا التواصل وغيرها من العلوم[1].

(1) انظر، van Dijk, T. (2007). (ed.). *Discourse Studies*. Sage Benchmark Series. New Delhi: Sage, vol 1, p7-25.

إضافة إلى ذلك فإن اقتصار حقل تحليل الخطاب على دراسة العلامات اللغوية، كان سيؤدي في حال حدوثه إلى خروج الحقل بأكمله من مجرى المعاصرة. فمنذ منتصف القرن العشرين بدا جليًّا أن العالم يعيش زمن "العلامات المتعددة multi-modality"؛ حيث إنه في معظم التجليات الخطابية الراهنة تتجاور الكلمة وتترابط وتتخاصم وتتعارض وتتساند مع الصورة واللون والحركة والإشارة والصوت والنغم... إلخ. وكانت الروابط القوية بين السيميائية وتحليل الخطاب – التي وصلت إلى حد التداخل والاختلاط – انعكاسًا لتشابك العلامات في الخطابات الإنسانية المعاصرة. وليس من المستغرب أن الكثير من الجهد البحثي في تحليل الخطاب في اللحظة الراهنة ينصرف إلى تحليل علامات غير لغوية[1]. كما كان من الطبيعي – لنفس الأسباب – ظهور توجه كامل في إطار تحليل الخطاب معني بالتهجين العلاماتي[2].

(1) من علامات هذه الأهمية تخصيص أعداد كاملة من دوريات مهمة لمناقشة هذه الظاهرة، مثل العدد الخاص الذي تعده دورية "الدراسات النقدية للخطاب Critical Discourse Studies"، حول موضوع "التحليل النقدي للخطاب متعدد العلامات".

(2) انظر على سبيل المثال: Kress, G., and T. van Leeuwen. (1996). *Reading Images: The Grammar of Visual Design*. London: Routledge.

- Kress, G. and T. van Leeuwen. (2001). *Multimodal Discourse: The Modes and Media of Contemporary Communication*. Arnold: London.

يمكن أن نضيف إلى التحولات الجذرية التي خضعت لها دراسات الخطاب تحولاً آخر في نوعية المقاربات التي تستخدمها في معالجة موضوعات دراستها. لقد ترك التوجه التأسيسي في تحليل الخطاب في ستينيات القرن العشرين منجزًا وصفيًا للأبنية اللغوية المجاوزة للجملة. وفي نفس الوقت كانت بعض توجهات تحليل الخطاب متأثرة بقوة بأفكار ميشال فوكوه ومدرسة فرانكفورت تؤسس مقاربة نقدية في تحليل الخطاب.

لقد كانت المقاربة الوصفية، متورطة تمامًا في تحليل نحو (أجرومية) الخطاب، وأعطت القليل للغاية من الاهتمام لما يُمكن تسميته بأجرومية المجتمع. وهكذا توارت التساؤلات الخاصة بكيفيات إنتاج الخطاب وتوزيعه واستهلاكه وسياقاتها، وما يفعله في لحظة تاريخية معينة لصالح التوصيف الدقيق لمظهره وسماته. وفي المقابل بدا أن المقاربة النقدية للخطاب المتأثرة بفوكوه ومدرسة فرانكفورت تهتم بتحليل المفاهيم والمقولات على حساب تحليل كيفيات القول؛ وبدا أنها تتحول إلى أن تكون شكلا من أشكال النقد الإيديولوجي غير المعزز – في كثير من الأحيان – بتحليلات لغوية نصية.

لقد تم تجسير هذه الفجوة إلى حد كبير في إطار ما يُعرف بالدراسات النقدية للخطاب Critical Discourse Studies أو التحليل

النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis [1]. وذلك بواسطة تبني مقاربة تجمع بين الوصف التفصيلي للتجليات اللغوية والنصية للخطاب، وتحليل الحجج وأساليب البرهنة، ونقد علاقات السلطة التي تعبر عنها وتنتجها أو تقاومها وتؤسس بديلاً لها.

اقترن هذا الجمع بين المنهج الوصفي والنقدي بالجمع بين الطريقة الكمية والكيفية في دراسة الخطاب. فقد كان الاعتماد المتزايد على علم لغة المدونات Corpus Linguistics، أحد أبرز تطورات دراسات الخطاب في العقد الماضي. وهو ما مكَّن من تحويل استبصارات المشتغلين بالخطاب إلى قيم عددية، مثل معدل تكرار أو تواتر مفردات أو عبارات أو تعبيرات أو ظواهر لغوية أو سيميوطيقية معينة في الخطاب. ولم تعد عمليات إنتاج معنى الخطاب أو شرحه أو تفسيره تتم في فضاء تأويلي مغلق، حيث توضع الذات المؤولة في مواجهة النص مباشرة، بل أصبح يوجد

(1) يتعامل البعض مع التسميتين على سبيل الترادف، ليشيرا إلى نفس الحقل المعرفي المعني بدراسة العلاقة بين الخطاب والسلطة، والذي خرج من رحم ما يُعرف باللغويات النقدية Corpus Linguistics. في حين يرى باحثون آخرون مثل فان ديك van Dijk أن الحقل المعرفي لـ"الدراسات النقدية للخطاب" أوسع من "التحليل النقدي للخطاب". انظر: Wodak, R. and M. Meyer (eds.). (2008). Methods of Critical Discourse Analysis. London: Sage، ص 11.

وسيط بينهما هو النتائج التي يقدمها التحليل الكمي للنصوص[1].

لقد أدى اهتمام الدراسات النقدية للخطاب بالعلاقة بين الخطاب والسلطة، إلى فتح آفاق رحبة أمام تأسيس مقاربة معيارية في تحليل الخطاب. فقد رأى الدارسون الناقدون للخطاب كيف يُمارِس كثير من الخطابات أشكالاً من التمييز والهيمنة والعنصرية والسيطرة والقهر ضد شرائح أو جماعات أو أعراق أو أقليات معينة. وظنوا – عن صدق – أن تغيير الخطاب قد يكون مدخلا لتغيير المجتمع. وبشكل أكثر دقة، فقد آمنوا بأنه يمكن إلى حد كبير التخفيف من الآثار السلبية للامساواة الاجتماعية التي تتجلى في كثير من

(1) هناك كتابات عديدة حول أهمية علم لغة المدونات لدراسات التحليل النقدي للخطاب، من أهمها:

Hardt-Mautner, G. (1995). 'Only Connect.' Critical Discourse Analysis and Corpus Linguistics [Electronic Version]. *Unit for Computer Research on the English Language Technical Papers 6*, Lancaster University. Retrieved 4/12/2012 from http://ucrel.lancs.ac.uk/papers/techpaper/vol6.pdf.

Mautner, G. (2005). Time to get wired: Using web-based corpora in critical discourse analysis. *Discourse & Society, 16*(6), 809-828.

Baker, P., Gabrielatos, C., Majid KhosraviNik, Krzyżanowski, M., McEnery, T., & Wodak, R. (2008). A useful methodological synergy? Combining critical discourse analysis and corpus linguistics to examine discourses of refugees and asylum seekers in the UK press. *Discourse & Society*, 19 (3), 273-306.

Mautner, G. (2009). Corpora and critical discourse analysis. In P. Baker (Ed.), *Contemporary Corpus Linguistics* (pp. 32-46). London: Continuum.

الخطابات العامة بواسطة إنتاج خطابات تُضعف هذه اللامساواة وتقوضها أو على الأقل تخلو منها. ومن ثمَّ، كرَّس بعض دارسي الخطاب شطرًا من اهتماماتهم لمعالجة كيفية إنتاج خطابات حرة عادلة غير تلاعبية ولا تمييزية[1]. وبذلك فإن الكثير من الدراسات النقدية للخطاب – في اللحظة الراهنة – تنطوي على ممارسة وصفية لأبنية الخطاب وتشكلاته، وممارسة نقدية لعلاقات السلطة القارة فيه، وممارسة معيارية موجهة لإنتاج خطابات أقل تلاعبًا وسلطوية وأكثر عدالة وتحررًا.

هذا الرصد – شديد الإيجاز – لبعض تحولات حقل تحليل الخطاب سوف يؤثر بقوة في محتوى الكتاب الحالي؛ فسوف أقدم مساهمة تُعد استجابة لبعض هذه التحولات، وإضافة لها في الوقت ذاته. نشأت نتيجة إدراك التداخل المتعاظم بين تحليل الخطاب والعلوم الإنسانية القريبة، وتتضمن تقديم نموذج للتضافر المنهجي الذي يمكن أن يوجد بين التحليل النقدي للخطاب عند نورمان فيركلف وأحد توجهات البلاغة العربية هو بلاغة المخاطَب (الجمهور)[2].

(1) من هذه الأعمال Fairclough, N. (Ed.) (1992). Critical Language Awareness. London: Longman. وكذلك، Gelber, K. (2002). Speaking Back: the Free Speech versus Hate Speech Debate. Amsterdam; Philadelphia: J. Benjamins Pub. Co

(2) انظر، عبد اللطيف، عماد. (2005). "بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته". ضمن *"Power and the Role of the Intellectual"*، كلية الآداب، جامعة القاهرة. ص 7 – 36. وكذلك انظر، Abdul-Latif, E. (2011).

وسوف أقدم الأسس النظرية لهذا التضافر، كما أحلل حدثًا خطابيًا بشكل تفصيلي لإبراز الإمكانيات البحثية الواعدة التي يمكن أن تنتج عن هذا التضافر.

مقترح للدمج بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور

يحدد فان ديك – أحد أبرز المشتغلين بالتحليل النقدي للخطاب – موضوع التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis بأنه "دراسة الكيفية التي يقوم بها النص والكلام بتقنين وإنتاج ومقاومة اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها ولا مساواتها". وأن المحلل الناقد للخطاب يسعى إلى فهم اللامساواة الاجتماعية والكشف عنها تمهيدا لمقاومتها. ومن ثمَّ فإن التحليل النقدي للخطاب له توجه عام هدفه توعية البشر بالتأثيرات المتبادلة بين اللغة والبنى الاجتماعية، تلك التأثيرات التي لا يعيها البشر غالبا[1].

أما نورمان فيركلف – المؤسس الأبرز للتحليل النقدي للخطاب–

Interdiscursivity between political and religious discourses in a speech by Sadat: Combining CDA and addressee rhetoric. *Journal of Language and Politics* 10:1 (2011), 50 – 67. Amsterdam: John Benjamin's

(1) انظر، Van Dijk, T. (2003). "Critical Discourse Analysis", in D. Schiffrin D., D., Tannen and H.E. Hamilton (eds.) *The Handbook of Discourse Analysis*, Blackwell Publisher.، ص 352.

فيرى أن الوعي الذي يحققه الاطلاع على نماذج من استخدام اللغة أداةً للقهر والهيمنة يمكن أن يكون حافزا على المقاومة والتغيير. وهو، وإن كان يثق في قدرة البشر على الخلاص من الهيمنة التي يمارسها بشر آخرون، فإنه يربط هذه القدرة بتطور وعي نقدي بهذه الهيمنة وأوضاعها. ويتحقق الوعي عن طريق التحليل النقدي للظواهر اللغوية والسيميوطيقية للخطاب؛ مثل المفردات والنحو والعلاقات النصية، والصورة والحركة..إلخ. ومن ثَمَّ، يندرج المحللون الناقدون للخطاب في تحليلات تفصيلية لهذه العناصر، ويقومون بشكل مستمر بتأويلات تربطها بعلاقات السلطة في المجتمع[1].

تتعدد المقاربات التي تعمل في إطار التحليل النقدي للخطاب، لكنها تشترك في المنطلق اللغوي لتحليلاتها؛ استنادا إلى أن اللغة مجلىً للسلطة. وربما كان هذا الفهم العام للعلاقة بين السلطة والخطاب جزءًا من المشترك العام بين ممارسي التحليل النقدي للخطاب. ولا يُعد الاختلاف في الأسس النظرية التباين الوحيد بين هذه المقاربات، إذ ثمة اختلاف في إجراءات التحليل، وآخر في الظواهر المدروسة. فعلى الرغم من أن هذه المقاربات تتفق في اتخاذ اللغة والظواهر السيميوطيقية موضوعا لدراستها، فإنها

(1) انظر، Fairclough, N. (1989). Language and Power. London; New York: Longman، ص 1 - 3.

تختلف – إلى حد كبير– في تحديدها للظواهر التي يراها كل توجه جديرة بالدرس. وهو ما قد يرجع إلى الاختلاف في التقييم النسبي لقدرة كل ظاهرة على الإفصاح والكشف عن السلطة التي يمارسها منتج اللغة ويبتغيها.

يجمع التضافر الذي أقترحه في هذا الكتاب بين بلاغة الجمهور وتوجه نورمان فيركلف في تحليل الخطاب. يستند الإطار التحليلي للتحليل النقدي للخطاب عند فيركلف إلى تصوره للحدث الخطابي؛ فهو يرى أن أي حدث خطابي له ثلاثة أبعاد؛ هي كونه نصًا text، وكونه ممارسة خطابية discursive practice، وكونه ممارسة اجتماعية social practice. وبإزاء كل بُعد من هذه الأبعاد يوجد مستوى من مستويات التحليل. المستوى الأول هو تحليل النص، ويدرس الملامح اللغوية للخطاب وتنظيم مكوناته الملموسة مثل المفردات والتركيب والسبك وبنية النص[1]. المستوى الثاني هو تحليل الممارسات الخطابية؛ أي تحليل الخطاب بوصفه شيئًا يُنتَج ويُوزَّع ويُستهلك في المجتمع. ويرى بلومارت وبولكن أن مقاربة الخطاب بوصفه ممارسة خطابية يعني أنه أثناء تحليل المفردات والنحو والسبك وبنية النص يجب أن يتوجه الاهتمام إلى أفعال

(1) انظر، Fairclough, N. (1992). *Discourse and Social Change*. UK; Cambridge, MA: Polity Press، ص 73.

الكلام والحبك والتناص، وهي عناصر ثلاث تربط النص بسياقه[1]. المستوى الثالث هو تحليل الممارسات الاجتماعية؛ أي التأثيرات الأيديولوجية وعمليات الهيمنة التي يُعد الخطاب مظهرا لها.

ثمة بُعد غائب في الإطار التحليلي الذي اقترحه فيركلف، وتم تطبيقه في عشرات – وربما مئات – الدراسات الأكاديمية. هذا البعد يخص العلاقة بين الخطاب والاستجابات الفعلية للجمهور الذي يتلقاه. لقد أقر فيركلف في سياق تناوله للممارسات الخطابية بالأهمية التي تحظى بها طريقة استهلاك النصوص بواسطة المخاطَبين بها، وذلك في تناوله لطور استهلاك الخطاب discourse consumption. وعلى الرغم من ذلك، فإن استهلاك الخطاب – وفقًا لفيركلف – ينحصر في طرق إنتاج المعنى وليس طرق الاستجابة للخطاب. وقد حاولتُ تجسير هذه الفجوة في الإطار الذي اقترحه فيركلف لتحليل الخطاب، بواسطة اقتراح توجه في الدراسة يبحث في العلاقة بين الظواهر اللغوية المكونة لخطاب ما، والاستجابات الفعلية التي يُنتجها المُستهدفون بهذا الخطاب، والعلاقة بين علاقات السلطة واستجابات الجمهور، وأساليب التلاعب بهذه الاستجابات. وقد أطلقت على هذا التوجه اسم بلاغة المخاطَب/الجمهور.

(1) انظر، Blommaert, J. and C. Bulcaen. (2000). "Critical Discourse Analysis". *Annual Review of Anthropology* 29, pp 447-66، ص 448 - 449.

تقترح بلاغة الجمهور أن استجابة الجمهور ربما تمثل المدخل الطبيعي لدراسة العلاقة بين الخطاب والسلطة. فسلطة الخطاب، تتجلى أساسًا في الآثار التي يُحدثها في استجابة الجمهور. ومن ثَّم، فإن القيود والمحددات التي تفرضها الظواهر اللغوية على استجابة الجمهور قد تُعتبر معيارا لتحديد ما هو سلطوي. كما أن نجاح خطاب سلطوي ما في تحقيق وظائفه، يُقاس أساسًا بقدرته على السيطرة على استجابات مستهلكيه. إن السلطة لا تمارَس من خلال اللغة فقط، وإنما أيضا من خلال الاستجابات الموجَّهة التي تتعاضد معها، فجمهور الخطبة السياسية مثلا لا يتأثر بأداء السياسي ولغته أثناء الخطبة فحسب، بل أيضا بردود الفعل التي قد يقوم بها الجمهور الفعلي الذي يحضر الخطبة. ومن ثَّم فإن مقاومة الخطاب السلطوي لا تكون بالكشف عن العلاقة بين الخطاب واستجابة الجمهور فقط، بل كذلك من خلال إجهاض قدرته على التحكم في استجابات مستهلكيه، وتعرية الاستجابات المتواطئة معه.

وقد قمتُ بتطبيق هذه المقاربة على بيانات عديدة، منها دراستي المطولة عن استجابة التصفيق في الخطب السياسية المصرية في كتاب "لماذا يصفق المصريون"، وعلى تعليقات الجمهور على الإصدار المرئي للمناظرة الشهيرة بين مرشحي الرئاسة المصرية عمرو موسى وعبد المنعم أبو الفتوح. وعلى بيان التناحي لجمال عبد الناصر. وقم زملاء آخرين بتطبيقه على بيانات أخرى منها:

الخطابة الوعظية الدينية في دراسة الباحثة الجزائرية دكتورة حامدة ثقبايت المعنون بـ"بلاغة الجمهور في تلقي الخطاب الديني"، مجلة الخطاب، جامعة مولودي معمري، الجزائر، عدد 15، 2013، ص 153 - 178؛ وعلى خطابات الثورات العربية في دراسة الباحثة الجزائرية الدكتورة ذهبية حمو الحاج المعنونة بـ"خطاب الثورة السورية.. من بلاغة المتكلم إلى بلاغة الجمهور"، موقع الكتابة، فبراير 2013؛ وعلى خطاب الصورة في دراسة الدكتور بدر الدين مصطفى "سلطة الصورة المرئية"، ضمن كتاب "اثنتا عشرة عينًا على مشهد التسلط"، (الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، 2008).

سوف أقوم – على مدار الصفحات التالية – بعرض نموذج تطبيقي إضافي لكيفية الإفادة من التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور في دراسة حدث تواصلي حصد قدرًا هائلاً من الاهتمام على المستوى العربي والعالمي؛ هو خطبة أوباما للعالم الإسلامي التي ألقاها في الرابع من يونيه عام 2009. وسوف أدرس على وجه التحديد تعليقات جمهور المشاهدين على الجزء الأول من أحد تسجيلات الخطبة، تم بثه عبر الإنترنت في نفس يوم إلقائها، وذلك على الرابط الآتي: http://www.youtube.com/watch?v=zhwVZAhURWA، تاريخ الدخول 10 إبريل 2012. وقد اخترت هذا الجزء نظرًا لأنه تضمن العدد الأكبر من التعليقات على خطاب أوباما من بين كل التسجيلات المتاحة على الإنترنت.

وقد بلغ عدد هذه التعليقات 147 تعليقًا، تراوح طول كل منها بين جملة قصيرة وعدة فقرات، وتوزعت على سبع صفحات على الإنترنت.

سوف أقسِّم دراستي لهذا الحدث الخطابي إلى جزأين. أُقدِّم في الجزء الأول رصدًا لملامح التغير في العلاقة بين الجمهور والخطابات الجماهيرية بفضل تقنيات التواصل الافتراضي. أما في الجزء الثاني فأقدم تحليلا تفصيليًّا لتعليقات جمهور مشاهدي الخطبة، مركزًا على العلاقات المتنوعة بين سلطة الخطاب الأصلي وسلطة الجمهور.

من بلاغة النص إلى بلاغة الجمهور: عصر استجابات الجمهور

أحدث انتشار وسائل الاتصال الجماهيري منذ مطلع القرن العشرين تحولاً كبيرًا في درجة مشاركة الأشخاص العاديين في الشأن العام في معظم دول العالم. فقد أدى الانتشار الطاغي للصحف المطبوعة والإنتاج الكثيف للراديو والتلفزيون إلى تغلغل الخطاب العام في حجرات معيشة الإنسان العادي في كل أطراف الأرض من أقصاها إلى أقصاها. كان هذا التحول عاملاً حاسمًا في بزوغ

ما أصبح يُعرف بـ"عصر الجماهير الغفيرة"[1]. وهو تعبير يحمل ضمنيًا دلالة أن ظاهرة الجماهير الغفيرة ملمح مميز للعصر الذي نعيشه؛ نظرًا لأن قدرة وسائل الإعلام الجماهيرية على مخاطبة أعداد لا حصر لها من البشر في نفس الوقت – متجاوزة قيود المكان – كان لها تأثير بالغ الخطورة على معظم الأنشطة البشرية في القرن العشرين. وعلى الرغم من أن التعبير قد يعكس – في أحد أبعاده – القوة النسبية التي يستحوذ عليها الجمهور في حقل التواصل العام؛ فإن التعبير ينطوي على دلالات أخرى مناقضة، ربما كانت هي الأكثر دلالة على جوهر القرن العشرين.

وسائل الإعلام الجماهيري وصناعة تعليب العقول

لقد أدرك بعض البشر القوة الهائلة الكامنة في وسائل الإعلام الجماهيري؛ من حيث قدرتها على التأثير في توجهات الجمهور وأفكاره ومعتقداته وتصوراته لنفسه وللعالم؛ ومن ثَمَّ قدرتها على توجيه أفعاله والتحكم فيها. وتزامن ذلك مع تنامي الاتجاه نحو أشكال مختلفة من أنظمة الحكم الديمقراطي التي تعطي لهذه الجماهير – نظريًا على الأقل – الدور الحاسم في صياغة شكل

(1) انظر، أمين، جلال. مصر في عصر الجماهير الغفيرة. دار الشروق، مصر، ط3، 2009.

المجتمع والحياة التي يريدون معيشتها. وهكذا بدا بوضوح أن من يستطيع السيطرة على وسائل الإعلام الجماهيري يصبح هو الأكثر تأثيرًا في الجمهور، ومن ثمَّ الأكثر قدرة على صياغة شكل المجتمع والحياة. وبذلك غدا التحكم في الجمهور، والسيطرة عليه وتوجيهه، أبرز غايات الفئة المسيطرة على وسائل الإعلام. وهي فئة عادة ما ضمَّت الطبقات الحاكمة في بقاع العالم، متحالفة مع كبار رجال المال والدين والنخب الفكرية. ونتيجة لذلك، شهد القرن العشرين أضخم مشروعات التلاعب بالجمهور، وأكثرها تأثيرًا على مدار الإنسانية. وأصبحت "صناعة تعليب العقول"؛ أي خلق مواطن كوني يفكر ويسلك بطريقة تخدم من يمتلكون السلطة، أبرز أنشطة وسائل الاتصال الجماهيري وأكثرها خطورة.

لم يكن يحلم أكثر السياسيين أو رجال الأعمال تفاؤلاً أنه سيأتي ذلك اليوم الذي يسيطرون فيه – مدعَّمين بمهارات جيش جرار من الخبراء، وعتاد هائل من البحوث – على عقول ملايين البشر، ليوجهونهم حيث يشاؤون ويرغبون. ونظرة سريعة إلى عشرات الملايين التي سيقت – بإرادتها – نحو آتون حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومئات الملايين الأخرى التي أصبحت تعبد الموضة وكرة القدم كفيلة بأن تضع أيدينا على النجاح الهائل الذي حققه من تحكموا كلية في "عصر الجماهير الغفيرة".

مَنْ لا صوت لهم: مفارقات عصر الجمهور الغفيرة

في ظل سيطرة من يملكون وسائل الاتصال الجماهيري على بعض أهم أدوات صياغة العقول والنفوس في العالم المعاصر، تنامت ظاهرة "منْ لا صوت لهم voiceless"؛ أي الأفراد أو الجماعات أو الأفكار ممن لا يستطيعون أن يشقوا طريقا إلى الخطاب العام، نظرًا لعدم تمكنهم من النفاذ إلى وسائل الإعلام الجماهيري. ونتجت عن ذلك واحدة من مفارقات القرن العشرين، هي وصول السيطرة على حقل المعلومات إلى حدها الأقصى، على الرغم من وجود آلاف المنافذ المتاحة – نظريًا – لتوزيعها. وزاد من وطأة هذه المفارقة أن معظم منافذ الإعلام الجماهيري ظلت حتى أواخر القرن العشرين حاملة لخطابات ذات بُعد واحد، غالبًا ما تخدم بشكل أساسي مصالح الأفراد أو المؤسسات التي تملكها وتديرها، والأنظمة والقوى التي تتحالف معها.

اعتادت هذه المنافذ أن ترسل رسائلها المرئية أو المقروءة أو المسموعة لجمهور لم يكن يملك إنتاج استجابة مقابلة تحظى بنفس إمكانيات الانتشار ونفس القوة الرمزية التي تحظى بها الرسالة الأصلية. فقراء الصحف الورقية أو مستمعي الإذاعات المحلية والدولية أو مشاهدي السينما والتلفزيون، لم يكن بوسعهم – بأية حال – أن يُنتجوا خطابات تفنيدية أو مقاومة أو موازية لما يقرأونه أو يسمعونه أو يشاهدونه، توزَّع على نطاق واسع، بدرجة قد توازن

تأثير الخطاب الأصلي. وهكذا تجمعت كل القوى التي تتيحها وسائل الاتصال الجماهيري في أيدي القلة التي تسيطر عليها؛ سواء أخذت شكل أنظمة حاكمة أم مالكو أسهم أم ملكيات عائلية... إلخ.

حتى في بعض السياقات التي كانت تتطلب دمج جمهور فعلي في الأحداث التواصلية الجماهيرية التي تنقلها وسائل الإعلام مثل تلقي الخطب السياسية أو برامج التوك شو، لم تكن تُترك للجمهور – عادة – إمكانية إنتاج استجابات حرة، بل كان يتم تنظيم هذه الاستجابات والسيطرة عليها؛ إما بواسطة اختيار الجمهور بعناية ليقوم بالاستجابات المتوقعة منه، أو بفرض قيود صارمة على الاستجابات غير المحببة تزيد من صعوبة إنتاجها من ناحية، وتُخضِع من يُغامر بإنتاجها لأشكال عديدة من العقاب من ناحية أخرى. لكن العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين كان على وشك أن يقفز قفزة جديدة، بدا أنها سوف تعيد بشكل جذري صياغة خريطة إنتاج الخطابات الجماهيرية وتوزيعها.

عصر استجابات الجمهور

لقد كانت التكنولوجيا التي أتاحت لشرائح محدودة من البشر التسلط على عقل البشرية بأكمله هي ذاتها التي أتاحت في العقد الأخير نوافذ أمل للفكاك من هذا التسلط. فقد تزايدت المساحة التي يستطيع من خلالها الفرد العادي في أي مكان من العالم أن يستجيب

بفاعلية لرسائل الإعلام الجماهيري، وأن يبث في المقابل رسائله الشخصية على نطاق واسع، ربما لا يقل مداه – في بعض الأحيان – عن مدى الرسالة الأصلية، بفضل انتشار وسائط الاتصال التفاعلية مثل الصحف الإلكترونية التي تتيح تعليقات الجمهور، وبرامج التليفزيون التي تتيح التعليق الآني على بثها، إما على مواقعها الإلكترونية أو عبر الرسائل التي تظهر في الأشرطة التفاعلية أسفل الشاشة، ومواقع البث الشخصي للمقاطع المرئية والمصورة مثل يوتيوب، والإذاعات الشخصية التي تبث مباشرة على الإنترنت، وصفحات الإنترنت الشخصية، سواء أكانت في شكل مدونات أم مواقع شخصية، أم حسابات شخصية في مواقع التواصل الاجتماعي على الفيس بوك أو التويتر. إن نظرة سريعة على حجم تدفق المعلومات على النطاق العالمي تشي بما لا يدع مجالا للشك، بأن دور الأفراد العاديين في تزايد وتنامي مستمر.

ما يعنينا هنا بالأساس هو التغير الجذري الحادث في قدرة الجمهور على الاستجابة الفعالة للخطابات التي يتلقاها، ومدى قدرة الاستجابات التي يقوم بها على النفاذ إلى ساحة الخطاب العام[1]. فلم

(1) لعرض متميز للتغيرات التي طرأت على مفهوم الجمهور بفضل أشكال التواصل في الفضاء الافتراضي، يمكن الرجوع إلى: Sharon E. Jarvis, John Durham Peters, Joseph B. Walther. "Audience". In Sloane, T. Ed. (2006). Encyclopedia of Rhetoric. Oxford: Oxford University Press.

يعد الجمهور الغفير مجرد مستقبل سلبي لوسائل الإعلام الجبارة؛ لم يعد مستمع الإذاعة أو قارئ الجريدة أو مشاهد التليفزيون أو متصفح الإنترنت يتلقى ما يُلقى إلى سمعه أو يمر أمام عينيه فيُعمِل فيه فكره، ويستخرج معناه فحسب، بل أصبح هذا المتلقي يستطيع نشر رأيه وموقفه مما قرأه أو سمعه أو شاهده، في شكل استجابات خطابية مباشرة آنية، قد تكون مواجهة لما تلقاه فتؤيده أو تفنده، تستحسنه أو تستهجنه، تؤكد مصداقيته أو تنزعها عنه، أو تكون موازية له فتضيف إليه أو تستبدله، أو تكون على هامشه فتقدم خطابها الخاص الذي قد لا يمت للخطاب الأصلي بصلة. وهكذا ظهر إلى الوجود ما أُطلِق عليه "عصر استجابات الجمهور". فبفضل التكنولوجيا التفاعلية أصبح الجمهور العادي قادرًا للمرة الأولى في تاريخ البشرية على إنتاج استجابات للرسائل التي يتلقاها، لها نفس انتشار الرسائل الأصلية التي يستجيب لها، ودرجة لا تقل كثيرًا من قوتها الرمزية[1].

(1) انظر: عبد اللطيف، عماد. (2005). "**بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته**". ضمن: *Power and the Role of the Intellectual*، جامعة القاهرة، القاهرة، ص 7 - 36.

خصائص استجابات الجمهور في الفضاء الافتراضي

بالإضافة إلى المدى الهائل للانتشار، تتسم هذه الاستجابات الجديدة بعدة خصائص تميزها عن أشكال الاستجابات الأخرى التي كانت متاحة للجمهور فيما مضى. هذه الخصائص هي:

1 - **الآنية:**

لقد كان باستطاعة الجمهور فيما مضى إنتاج استجابات للرسائل التي يتلقاها عبر وسائل الإعلام. لكن هذه الاستجابات عادة ما كان يتم توزيعها في زمن لاحق على زمن إنتاج الرسالة الأصلية. فبريد القراء في الصحف الورقية كان يتيح نشر بعض استجابات القراء لكن في زمن لاحق للرسالة الأصلية. أما استجابات الجمهور في الوقت الراهن فإنها توزَّع وتستهلك تقريبًا في نفس زمن توزيع الرسالة الأصلية واستهلاكها؛ وذلك لأن الوسائط التي تنشر هذه الاستجابات – مثل صفحات الإنترنت – غير محدودة بقيود مشابهة لتلك التي تقيد الوسائط القديمة مثل الصحف الورقية أو البث الإذاعي.

2 - **ضعف الخضوع للرقابة وإعادة المعالجة:**

فقد كانت استجابات الجمهور عادة ما تخضع لأشكال عديدة من الرقابة، يتم أثناءها استبعاد الاستجابات غير المرغوب فيها وإعادة تحرير ومعالجة استجابات أخرى. أما الاستجابات الراهنة

فإنها تتمتع بمساحة أكبر من الحرية والنفاذ. بالطبع ما تزال هناك بعض محددات للاستجابة في بعض الفضاءات تخص كم الكلمات المكتوبة أو طبيعة الكلام المكتوب وأسلوبه. كما توجد استجابات موجَّهة وأخرى منظَّمة بواسطة جماعات أو قوى معينة، بمثل ما توجد أشكال من الاستبعاد المنظم لبعض الاستجابات. غير أن هذه الممارسات لا تُقارن بالقيود القديمة على استجابات الجمهور. وهذه المحددات عادة ما يتم القفز عليها نظرا لتعدد منافذ توزيع استجابات الجمهور، ووجود فضاءات شخصية لا تخضع لأية قيود خارجية تقريبًا.

3 - **ضخامة حجم الاستجابات وتعدد أنواعها:**

إذ عادة ما كانت استجابات الجمهور في وسائل الإعلام غير التفاعلية محدودة في حجمها مقارنة بالرسائل الأصلية، كما أنها عادة ما كانت تُصاغ في شكل رسائل لغوية فحسب. على خلاف ذلك فإن استجابات الجمهور في الوقت الراهن لا تواجه أية قيود في الحجم، وكثيرا ما يتجاوز حجم بعض الاستجابات حجم الرسالة الأصلية. وعلى النحو ذاته، تتعدد في الوقت الراهن أنواع استجابات الجمهور؛ فقد تأخذ شكل رسائل لغوية أو شكل تسجيلات مسموعة أو مرئية أو شكل رسائل بصرية مثل اللوحات أو الإشارات الحركية.

4 - قابلية تجهيل المصدر وصعوبة التتبع:

فقد أتاحت وسائل الاتصال الإلكترونية إمكانيات لا حصر لها لتجهيل مصدر استجابات الجمهور، فالأسماء المستعارة أو الرموز واستخدام الحواسيب العامة أو الهواتف النقالة، كلها وسائل تتيح تجهيل مصدر الاستجابة. ومن ثمَّ، يمكن معرفة القليل للغاية عن هوية منتج الاستجابة سواء من ناحية العمر أو النوع أو الجنسية... إلخ. وفي الواقع، فإن القليل من المواقع الإلكترونية هي التي تطلب معلومات شخصية حقيقية عن مصدر مُنتِج الاستجابة، ويندر أن تتحقق هذه المواقع من كون هذه المعلومات دقيقة أو صادقة، ويصعب كثيرًا هذا التحقق إن أرادته. ويترتب على ذلك صعوبة إمكانية تتبع هذه الاستجابات، وصعوبة القدرة على ضبط منتهكيها في حال ما خالفت القوانين، أو ارتكبت إحدى جرائم الكلام مثل الحض على الكراهية أو التحريض على العنف. هذه الخاصية تتيح – من ناحية – مساحة هائلة لحرية الاستجابة، وتفسر – من ناحية أخرى – حرص بعض المواقع على وضع ضوابط أو معايير لقبول الاستجابات، وقد تتيح للجمهور ذاته حذف استجابات أفراد آخرين إذا رأى أنها غير لائقة؛ بعد عدد معين من طلبات الحذف.

5 - سهولة القابلية للحصر والقياس:

فكل شيء قابل للحصر والقياس على الفضاء الافتراضي، ولا تشذ عن ذلك استجابات الجمهور، فتعليقات الجمهور على الخطاب

الأصلي، وإعادة إرساله، ووضعه أو حذفه من دائرة التفضيلات، وغيرها من الأفعال، يمكن قياسها وحصرها وتفسير العلاقة بينها وبين الخطاب الأصلي.

تكشف الخصائص السابقة عن الإمكانيات الهائلة لاستجابات الجمهور، والقوة العظيمة التي تنطوي عليها. ولكي توظَّف هذه الإمكانيات على أفضل نحو ممكن، لابد من إعادة النظر في العلوم التي ساهمت في تشكيل خطابات السلطة القديمة، لكي تنجز أهدافًا جديدة ربما كانت أكثر نبلا وأخلاقية، ويأتي على رأس هذه العلوم علم البلاغة.

من بلاغة السلطة إلى بلاغة الجمهور

على مدار قرون عديدة كانت البلاغة أداة يستطيع من يتقن استخدامها أن يسيطر – إلى درجة ما – على الآخرين. وقد ذكر جورجياس (وهو أحد أشهر معلمي البلاغة في تاريخ اليونان القديم) في محاورة حملت اسمه خصصها أفلاطون لنقد البلاغة، أن هؤلاء الذين يعرفون كيف يتكلمون، وكيف يقنعون الجمهور يتمكنون من تسخير الجمهور لخدمتهم، ويمكنهم بسهولة سلب هذا الجمهور ما يمتلكه[1]. لقد تعدد الفاعلون الاجتماعيون ممن يقومون في الوقت

(1) لاستعراض نقدي لهذه المحاورة، ولتصورات أفلاطون حول البلاغة عمومًا، يمكن الرجوع إلى: عبد اللطيف، عماد. (2008). موقف أفلاطون من البلاغة من=

الراهن بالمهمة التي كان يقوم بها الخطيب قديمًا (أي إخضاع الناس لإرادته تمهيدا لاستغلالهم)؛ مثل محرري الخطاب the ghost writers، وأخصائيي التضليل الإعلامي spin-doctors، وخبراء الدعاية، والمتحدثين بالإنابة spokes-men، وبعض رجال الدين الرسميين..إلخ. كما أن المستفيدين الأساسيين من هذا الإخضاع ليسوا هم هؤلاء التقنيين، وإنما من يعملون لحسابهم. ومع ذلك فإن الارتباط بين البلاغة والسلطة ما زال قائمًا وفاعلاً.

في مواجهة هذه الهيمنة التي تمارسها بلاغة السلطة، وللإفادة المثلى من عصر استجابات الجمهور، لا مفر من تأسيس بلاغة للجمهور تسعى لتخليص علم البلاغة من جزء من تاريخه السلبي الطويل في خدمة السلطة على حساب الجمهور. هذه البلاغة الجديدة غايتها إمداد الإنسان العادي، الذي يشكل اللبنة الأساسية للجمهور، بمعرفة تمكنه – في حال تعرضه لخطاب ما – من الكشف عن تحيزات هذا الخطاب، ومبالغاته، ومغالطاته، ومفارقاته للواقع، وتناقضاته الداخلية والأغراض التي يسعى لإنجازها. وذلك حتى يتمكن من التمييز بين خطاب سلطوي يسعى للسيطرة عليه، وخطاب يسعى لتحريره. لكن الغاية الأهم لهذه البلاغة هي تدريب

=خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية. مجلة علمية محكّمة**، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مجلد 5، عدد 3 (2008)، ص 227 – 244.

الإنسان العادي على إنتاج استجابات بلاغية فعالة تجاه كل ما يتلقاه، تمكِّنه من مقاومة الخطابات المتلاعبة التي تستهدف تضليله والسيطرة عليه، وفضحها، وإنتاج خطاب بديل يخلو من التلاعب والتضليل.

لقد آمن أفلاطون بأن غاية بلاغة السلطة هو التلاعب بالمستمعين من قِبَل أناس غيرِ مخلصينَ في دوافعهم بشكل جذري[1]. وما يمكن أن تقوم به "بلاغة الجمهور" هو إيجاد غاية جديدة للبلاغة، تتمثل في تقويض إمكانيات استخدام اللغة للتلاعب بالجمهور من قِبَل هؤلاء "غير المخلصين"، وتمكين الأفراد العاديين من التوظيف الأمثل لاستجاباتهم. وهي تجعل بذلك علم البلاغة في خدمة الطرف الأضعف في عملية الاتصال الجماهيري – أعني الجمهور– مستهدفة زعزعة هيمنة سلطة الخطاب وخطاب السلطة؛ بحيث يصبح الجمهور ممتلكًا بشكل فعلي لحرية الإرادة والفعل بما يحول دون وقوعه ضحية الخداع أو التضليل. إنها بلاغة تعمل على تخليص البشر من كل ما يعمل على تشويه الفهم والاتصال، وهو ما قد يؤدي إلى خلق اتصالٍ حرٍ؛ لا تشوهه أشكال عدم التكافؤ الاجتماعي، أو القمع الخارجي، أو القهر الداخلي، وتعزِّز من قدرة الجمهور على إنتاج خطابات مقاوِمة وتحررية، لتجعل من العصر الذي نعيشه بالفعل عصر استجابات الجمهور الرشيدة.

(1) انظر، عبد اللطيف، 2008، مرجع سابق، ص 232–233.

سوف أقوم في الصفحات الآتية بتحليل تعليقات الجمهور على خطبة أوباما في القاهرة من زاوية العلاقة بين سلطة النص الأصلي وسلطة التعليق، ومن زاوية مدى تمثيل هذه التعليقات لنموذج الاستجابات البليغة، الذي تنشده بلاغة الجمهور.

تعليقات الجمهور على خطبة أوباما: مقاومة سلطة الخطابات الجماهيرية

يمكن أن نرصد عددًا من الملاحظات بشأن تعليقات القراء على هذا التسجيل الحي لخطبة أوباما.

أولا: التنوع اللغوي والأسلوبي

فالمعلقون على الخطبة يستخدمون لغات مختلفة؛ فبعض التعليقات كُتبت بالإنجليزية، في حين كتبت تعليقات أخرى بالعربية، وتضمنت بعض التعليقات كذلك مزجًا بين اللغتين. وثمة تنوع في مستويات الأسلوب داخل اللغة الواحدة؛ فبعض التعليقات كُتبت بلغة عربية فصحى سليمة، في حين مَزجت تعليقات أخرى بين الفصحى والعامية، أو كُتبت بعامية خالصة. وقد لجأ بعض الكتاب إلى كتابة كلمات عربية بحروف لاتينية، مثل: La 7awl elah ya raby walahy ehna nas tayebeen (لا حول الله يا ربي، والله إحنا ناس طيبين). ويشمل هذا التنوع أيضًا علامات غير لغوية، مثل

تنوع بنط الخط، فبعض التعليقات تستخدم بنطًا كبيرًا للغاية، بهدف وضع كلمة أو تعبير بعينه في بؤرة الكلام، وتنوع سُمك الكلام واستخدام حروف متفرقة وتكرار بعض الحروف بهدف إبراز الكلمة، ووضع مسافات بين الحروف لتكبير المساحة التي تأخذها الكلمات. وسوف نرى نماذج لهذه التنويعات في سياق تحليل هذه التعليقات.

عادة ما تحمل هذه الاختيارات اللغوية والأسلوبية دلالات اجتماعية وسياسية. وعلى سبيل المثال، فإن التعليق المكتوب بلغة أجنبية ينطوي على ممارسة خطابية إقصائية، لأنه يُبعد من لا يعرف هذه اللغة من دائرة متلقي التعليق. كما أنه قد يحمل دلالات ثقافية أو اجتماعية بشأن هوية الشخص الحقيقية أو المبنينة بواسطة التعليق. ومن الجلي أن الذخيرة الخطابية لكتَّاب التعليقات التي تظهر من خلال تعليقاتهم، تكشف الكثير عن ثقافاتهم ومعارفهم من ناحية، وتتطلب آليات وقدرات تلقي متباينة من ناحية أخرى. فبعض التعليقات تتضمن جملا حكمية مثل **(أفلح إن صدق)**، أو أبيات شعر مثل التعليق الذي تضمن البيت القائل:

وغدا يعلم الحقيقة قومي ليس شيئا على الشعوب بسر

ثانيًا: تنوع أشكال التفاعل مع النص الأصلي (خطاب أوباما)

التعليق هو في الأصل شكل من أشكال التفاعل بين المتلقي

وخطاب المتكلم؛ يُكمل دائرة الحدث التواصلي؛ فمنتج الخطاب ينتج الخطاب، ويقوم بتوزيعه عبر وسائط متعددة – من بينها الإنترنت –، حيث يتلقى المخاطَبون هذا الخطاب، ويستجيبون له عبر عدد لا يُحصى من الاستجابات، من بينها التعليقات المكتوبة. ومن الطبيعي أن يكون التفاعل مع النص الأصلي هو الاهتمام الأكبر للمعلقين عليه.

تتعدد أشكال ومستويات تفاعل المعلقين مع النص الأصلي، ويمكن أن نصنِّف هذه التعليقات وفقًا لما يأتي:

1 - التعليق على أجزاء صغيرة، أو تلفظات جزئية من الخطاب؛ مثل قول أحد المعلقين:

– سمعتو شو قال آخر شي؟ قال: "قوة كياننا كاملة في اتحادنا". طب ليه إحنا العرب مش متحدين؟ ليه؟ شو الغلط فينا؟ بدنا دا الهيك فاشلين؟

2 - التعليق على مجمل الخطاب؛ مثل العبارة التالية التي اكتفى بها أحد المعلقين:

–"صح يا خويا.. كلامك صحيح".

تنطوي العبارة الأخيرة على تناص مع برنامج فكاهي شهير، كان يُذاع في الإذاعة المصرية تحت عنوان "ساعة لقلبك"،

والعبارة هي لازمة كلامية لإحدى الشخصية الفكاهية هو "الدكتور شديد"، الذي كوَّن مع "الخواجة بيشو"، ثنائيًا شهيرًا، اتخذ من تيمة الكلام الفانتازي غير المعقول، الذي يحلِّق في الخيال، والذي يفتقد أدنى صلة بالحقيقة موضوعًا لإضحاك الجمهور. وعادة ما كان "الدكتور شديد" ينطق العبارة الواردة في التعليق عندما يصل كلام "الخواجة بيشو" إلى أقصى درجات اللامعقول والخرافية. وينطوي التناص مع البرنامج الفكاهي على إيحاءات ضمنية بمجانبة كلام أوباما للحقيقة، واندراجه في إطار المبالغات والفانتازيا. كما يُنجز التناص سخرية تفنيدية، من خلال الإيحاء بالتماهي بين شخصية "الخواجة" بيشو الفشَّار، و"الخواجة" أوباما.

3 - الإشارة إلى السياق لإضاءة التلفظ: فبعض التعليقات تحاول توجيه التأويلات الممكنة لكلام أوباما بواسطة الإشارة إلى السياق الخارجي؛ مثل التعليق الآتي:

– النظام الأمريكي ماشي على شيء معين، أي رئيس ييجي شغله ينفذ القرارات الموضوعة من قبل ويمشي!!

تؤدي وجهة نظر كاتب التعليق بشأن محدودية تأثير الأفراد في عمل مؤسسة الرئاسة الأمريكية؛ إلى التشكيك في مصداقية كلام أوباما، بواسطة تقييد القدرة على تنفيذ ما يعد به. وهو من هذه الزاوية يمارس تفنيدًا غير مباشر، فهو لا يتهم أوباما بالكذب

بشكل مباشر، وإنما يحيل إلى غياب إمكانيات التنفيذ. وهو يستعين بالإشارة إلى سياقات تداول الكلام بوصفها عنصرًا فاعلاً في الحكم على مصداقية الكلام.

4 - مساءلة مقولات الخطاب بواسطة استحضار الخطابات المناقضة؛ وهو ما يتجلى في المقتطف التالي من أحد التعليقات:

– هو يلقى هذا الخطاب فقط لكسب العرب لجانبه؛ لكن الحقيقة تبدأ من رؤية الفيديو مع خطابه مع إسرائيل، ابحث على اليوتيوب عن الوجه الحقيقي لأوباما!!![1]

هذا الشكل من أشكال التفاعل مع النص شائع الاستخدام بوصفه أداة تفنيدية؛ فهو يُبرز فجوة المصداقية؛ بواسطة استدعاء الذخيرة الخطابية للمتكلم، ومقارنة تلفظات مختلفة لنفس المتكلم في سياقات متباينة، أمام جمهور مختلف.

5 - تقديم تلخيصات وشروح للخطبة ككل: مثل التعليق الذي تم بثه على كل الروابط الموجودة للخطبة على الإنترنت تقريبًا. ويبدأ بعبارة "باراك أوباما يريد منَّا أن:

– "Barack Hussain Obama wants us to.....

(1) احتوى هذا التعليق على العديد من الأخطاء الإملائية، التي لم تؤثر على المعنى.

6 - تعليق الحكم على الخطاب: هناك تعليقات احترازية، تمارس توجيهًا للأحكام والتقييمات المتعلقة بالحدث الخطابي، من خلال الدعوة لإرجاء الحكم، حتى تتسنى مقارنة الأفعال بالتلفظات. من هذه التعليقات:

– مع احترامي.. كله كلام بس.. والحكم راح يكون في المستقبل.

– صعب أحكم على بنى آدم من مجرد خطاب أو كلام.. لكن أقدر أحكم على بنى آدم من أفعاله وتصرفاته.. والأيام بيننا.

ثالثًا: تأسيس علاقات متنوعة مع المتكلم:

1 - التوجه للمتكلم مباشرة بالخطاب. هذه صيغة بلاغية يتوجه فيها كاتب التعليق إلى المتكلم الفعلي (أوباما) مباشرة بخطابه، في حين أن المتلقي الفعلي لكلامه – أي المتلقي المقصود – هم قراء التعليقات. كما في التعليق الآتي:

– يا أوباما سؤال واحد فقط..

2 - تقديم أشكال من الانتقاد المباشر وغير المباشر لشخصية المتكلم؛ كما في المثال الآتي:

– أوباما مجرد ثرثار ويجيد فن الخطابات المباشرة أمام

الجمهور.... بالعربي الفصيح مجررررد بووووء.

وقد لجأ كاتب التعليق إلى وسيلة طباعية للتأكيد اللفظي لكلامه، بتكرار أحد الحروف عدة مرات كما في نحو (مجررررد).

وقد يتم المزج في هذه الانتقادات بين انتقاد الشخصية ونقد الكلام: كما في التعليق الآتي:

– خطاب هذا الأبله تخديري.

وقد احتفظتُ بالتنسيق الأصلي لهذا التعليق، كنموذج للعلامات الطباعية المؤثرة في تلقي النص. فقد وضع كاتب التعليق مسافات طويلة بين الحروف ليجعل العين تتمهل كثيرًا في قراءة المفردات، ومن ثمَّ يتيح مساحة زمنية أطول لمعالجة دلاليًّا. كما أن إعطاء مساحة كبيرة للمفردات على الفراغ الافتراضي لصفحة الإنترنت هو شكل من أشكال التوكيد اللفظي، الذي يجعل المفردات تستحوذ على اهتمامٍ وانتباهٍ مضاعف. ويتدعم هذا بالنطق البطيء الذي ينشأ عن تباعد المسافة بين الحروف.

كثيرًا ما يلجأ المشاركون بالتعليقات على الإنترنت إلى تصرفات عديدة لدعم وجهات النظر التي يدعمونها. من بين هذه التصرفات إنتاج أشكال من التوكيد اللفظي، بواسطة التكرار الحرفي لنفس التعليق، ووضعه في مربعات تعليق متعددة، أو بواسطة التكرار شبه الحرفي للتعليق، عن طريق إجراء إعادة صياغة له، ونشره

أكثر من مرة، أو بواسطة إعادة نفس التعليق مرات متوالية في نفس المربع.

3 - تقديم أشكال من التقريظ المباشر وغير المباشر لشخصية المتكلم: كما في الأمثلة الآتية:

– أوباما يستحق كل تقدير واحترام – لصراحته وجديته.

– أوباما رجل صالح وطيب القلب..

أوباما شخصية تستحق الاحترام والإعجاب ليس لأنه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ولكن لطموحه وقدرته على تحقيق أحلامه وآماله على الرغم أنها كانت من المستحيلات أن يتولى أسود الحكم.

كُتبت التعليقات الثلاثة باسم ثلاث شخصيات، لكنها تتفق في كونها تستخدم درجات متقاربة من اللغة الفصحى، وثمة تشابه في المحتوى واستخدام لنفس بنط الخط. وهو ما يشير إلى احتمال أن يكون كاتب التعليقات شخصية واحدة. وهي ظاهرة من الظواهر شديدة الشيوع على الفضاء الإلكتروني.

رابعًا: أشكال التفاعل بين التعليقات

تتيح الفضاءات الإلكترونية حالة من التفاعل المفتوح بين المشاركين. يتسم هذا التفاعل بأنه متجاوز لحدود الزمان والمكان؛ فأي شخص

يمكنه أن يشارك فيه؛ أيًّا تكن البقعة الجغرافية التي يوجد فيها، وأيًّا يكُن الزمن الذي يتلقى فيه الخطاب. يعكس تنوع لغة التعليقات الفضاءات الجغرافية والثقافية الواسعة التي ينتمي أصحابها إليها. كما أن هذه التعليقات تمتد على مسافة زمنية طويلة؛ فبعضها كُتب فور انتهاء أوباما من إلقاء خطابه، وحُمِّل على الإنترنت، في السادس من يونيه 2009، في حين كُتب أحدثها في إبريل 2012، حين شرعتُ في إعداد هذه الدراسة. ومن المؤكد أن هذه التعليقات سوف تستمر باستمرار تلقي الحدث الخطابي على الإنترنت، ووجود إمكانية التعليق، وهو ما قد يكون سرمديًا.

يبدو هذا التنوع الجغرافي والتفاوت الزمني شديد الأهمية في فهم تعليقات الجمهور على الإنترنت. فتنوع الخلفيات المعرفية والثقافية للمعلقين يتيح فرصًا ثرية للتواصل الحي عبر الثقافات، ويضمن تنوع المنظورات والرؤى المقارِبة للحدث الخطابي موضع التعليق. أما لانهائية إمكانية التعليق، فتتيح واحدة من أكثر سمات خطاب التعليق فرادة؛ إذ تصبح التعليقات ذاتها كتابًا مفتوحًا أمام التاريخ. وهو ما يجعل صفحة الإنترنت تحتفظ بآثار كل تحول في ظروف تلقي الخطاب؛ إما نتيجة لتغير الصورة الذهنية لمنشيء الخطاب أو لتغير الظروف المحيطة بفهم الخطاب وتأويله، أو غير ذلك من أسباب.

إن الزمن يصهر الخطبة السياسية في بوتقة الأحداث؛ وحين يشتد لهيب التحولات تتحول بعض الخطب السياسية إلى ماس أو رماد. وتعليقات القراء هي المرآة التي نرى فيها تحولات الخطب عبر الزمن، وتغير التقدير الذي تحظى به. ومن الشيق تتبع كيف تتحاور التعليقات عبر الزمن.

يكتب أحد المعلقين موجهًا خطابه إلى أوباما قائلا:

– أوباما لا تفكر العرب هبل.. أنت لم تُدن إسرائيل المحتلة لفلسطين.. وقلت إن من يفجر نفسه في حافلة جبان إذن هل شجاع من يستعمل (طائرات) إف 16 ضد النساء الآمنة. وشكرا.

فيعلق شخص على التعليق ممتدحًا كاتبه، قائلا:

– لله درك يا بطل..!!!

يبدو أن تعليقات متلقي خطبة أوباما كانت تتحرك باتجاه الانتقاد الجذري للخطبة بمرور الوقت. فالتعليقات المكتوبة بعد عامين من إلقاء الخطبة، تتضمن نقدًا أكثر لذاعة للخطبة والخطيب معًا، مقارنة بما كُتب قبل ذلك. وبعض التعليقات التي كتبت في الشهور الأخيرة تدخل في جدل مباشر مع التعليقات الأقدم، في ضوء مقارنة الكلام الذي تتضمنه الخطبة، بالأفعال المادية التي مارسها أوباما بالفعل.

– لا تعولوا على أمريكا أو أوباما

هناك أشكال أخرى من التفاعل بين كتَّاب التعليقات، منها تقديم تعليقات ميتاخطابية، تتضمن ملاحظات على طبيعة الخطاب الذي تؤسسه التعليقات الأقدم، كما في المثال الآتي، الذي ينتقد فيه كاتب التعليق لغة كاتب تعليق آخر:

– الله يخليك يا خوي.. بس خليك متنبه على اللي تكتبه هنا.

وقد انصرفت بعض التعليقات إلى تقييم عناصر ميتاخطابية أخرى، مثل درجة كفاءة الترجمة المصاحبة للخطبة. كما في التعليق الآتي:

– المترجم يصدع الراس

كذلك توجهت بعض التعليقات إلى انتقاد تعليقات أخرى في موقفها من الخطبة؛ كما في التعليق الآتي:

– لماذا كل هذا التعصب الأعمى... خطاب الرئيس أوباما كله خير للعرب والعالم.

على الرغم من أن كتابة التعليقات تبدو شكليًا أقرب إلى حوار ثنائي بين المعلِّق والتلفظ الذي يعلِّق عليه؛ فإنها تتحول عمليًا إلى حوارية متعددة الأطراف بين كاتب التعليق وكل كتَّاب التعليقات الأخرى، ويتحول التلفظ إلى موضوع أو إطار لحوار المتحاورين. ولعل هذا ما يفسر الطابع التفاعلي المهيمن لمثل هذه التعليقات.

خامسًا: تنوع العلاقة مع الجمهور الفعلي المتلقي للخطاب

منذ عقود طويلة أصبح العالم يعيش مرحلة **التواصل الحي** المتجاوز للزمان والمكان. فالخطبة التي يُلقيها سياسي ما في بقعة ما من بقاع الأرض يمكن أن يتلقاها أي فرد آخر في أية بقعة أخرى، إذا وجدت سبيلها إلى أي وسيط إعلامي مسموعًا كان أم مرئيًا. وهكذا لم تعد الخطابة السياسية سجينة الساحات الشعبية أو القاعات البرلمانية بل زحفت إلى حجرات نوم ومعيشة أبسط البشر الذين يملكون شاشة تلفزيون أو راديو أو كمبيوتر أو هاتف محمول. وترتب على ذلك تعدد أنواع جمهور الخطبة السياسية من حيث طبيعة تلقيهم للخطبة، وإمكانية الدمج بين استجابتهم وخطاب المتكلم؛ وعادة ما نجد نوعان من الجمهور:

1 - **الجمهور المشارك**: هو الذي يتلقى الخطبة السياسية بشكل مباشر دون وسيط إعلامي؛ ويستطيع أن ينقل استجابته للخطيب بشكل مباشر دون وسيط إعلامي أيضًا. وهو يتكون من الأشخاص الحاضرين في نفس مكان إلقاء الخطبة، ممن يستطيعون رؤية الخطيب وسماعه ويستطيع الخطيب رؤيتهم وسماعهم بشكل مباشر. وهو جمهور مشارك لأن وجوده مكمِّل للحدث الخطابي؛ فهو يشارك في إنتاج الحدث؛ لأن الاستجابة التي يقوم هذا الجمهور بإنتاجها تُعد جزءًا من خطاب المتكلم ذاته.

2 - **الجمهور غير المشارك**: وهو الذي يتلقى الخطبة عبر وسيط؛ قد يكون سمعيًا كالإذاعة، أو مرئيًا كشاشات العرض العملاقة أو الكمبيوتر أو التليفزيون. وهؤلاء لا يستطيعون – في كثير من الحالات – نقل استجاباتهم بشكل مباشر للخطيب. ومن ثَمَّ فإن هذه الاستجابات لا تُدمَج في خطاب المتكلم. هذا الجمهور غالبًا ما يكون الأكثر عددًا وأهمية بالنسبة للمتكلم. وعلى الرغم من أن استجاباته لا تصل إلى المتكلم بشكل مباشر، فإن هذه الاستجابات قد تكون الغاية النهائية للخطاب نفسه[1].

تعكس التعليقات الموجودة على النسخ المسجلة من خطبة أوباما وجود أشكال من التفاعل بين الجمهور المشارك الذي تلقى الحدث مباشرة بشكل حي دون وسيط إعلامي، والجمهور غير المشارك الذي تلقى الحدث عبر وسيط الإنترنت. والملاحظ أن هذه التعليقات تتحرك في اتجاه واحد هو انتقاد الجمهور غير المشارك للجمهور المشارك. قد يتوجه هذا الانتقاد إلى الجمهور المشارك في مجمله؛ كما في التعليقات الآتية:

– اللي قاعدين يصفقون قسمًا بالله أهانوا المسلمين. كيف نُخدع هكذا؟! يثرثر هذا الكاذب وأنتم تصدقون.

(1) انظر، عبد اللطيف، عماد. 2009. لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجمهور في السياسة والفن. القاهرة: دار العين، ص 226 – 227.

– مدري ليش يصفقون له.

– والعرب مصدقين.. يصفقون.. خل الكلام العاطفي اللي قاله وشوف الكلام الرئيسي.

– La 7awl elah ya raby walahy ehna nas tayebeen da bey2ol kelmeteen kda yenyamena behom w howa al3an men baush!!!! (لا حول لله يا رب، والله إحنا ناس طيبين، ده بيقول كلمتين كده ينيمنا بيهم، وهو ألعن من بوش!!!).

وقد يقتصر الانتقاد على شريحة معينة من الجمهور، كما في التعليق الآتي:

– قال السلام عليكم صفقوا له المصاروه.

من الواضح أن القدر الأكبر من التعليقات على الخطبة كانت تخص الاستجابات الاستحسانية التي أنتجها الجمهور المشارك، أثناء تلقيه لها. وقد نالت استجابة التصفيق النصيب الأكبر من الانتقاد. ويبدو هذا طبيعيًا في إطار التعليق على أحداث التواصل الجماهيري، حيث تستحوذ استجابات الجمهور الفعلي على قدرٍ من اهتمام المعلقين. وكثيرًا ما تكون هذه التعليقات انتقادية؛ خاصة في سياقات التواصل السياسي العربي الذي يعرف أشكالا عديدة من

تنظيم استجابات الجمهور، ومستويات متنوعة من الإكراه على إنتاج استجابات الاستحسان[1].

تعليق ختامي: الخطاب والسلطة في الفضاء الافتراضي

يكشف التحليل السابق لتعليقات الجمهور على خطبة أوباما عن بعض ملامح التغير الحادث في قدرة المتلقين العاديين على نقد الخطاب الجماهيري وتفنيده. لقد أصبحت الاستجابات الآنية التي ينتجها متلقو الخطابات الجماهيرية، والتي تلازم عملية تلقيها، عاملاً محددًا لمدى تأثير هذه الخطابات على الجمهور. وعلى الرغم من عدم وجود إحصاءات دقيقة بشأن مدى هذا التأثير أو كيفية حدوثه، فإننا لا نملك إلا الإقرار بوجوده. عادة ما يتخذ هذا التأثير مسارين؛ إما باتجاه تعزيز قوة الخطاب أو إضعافها. ويبدو أن تعليقات الجمهور على خطاب أوباما تصب في مسار إضعاف قوة الخطاب، بحرصها على إضعاف مصداقية المتكلم، والتشكيك في غاياته ومراميه، وتفنيد الكلام، ونقد الاستجابات المستحسنة له. وهكذا تقدم بعض هذه التعليقات نموذجًا للاستجابة البلاغية؛ التي تسعى لتعرية الخطابات التي قد تُدرَك بوصفها متلاعبة.

(1) لتحليل تفصيلي لأساليب حفز الجمهور أو إكراههم على إنتاج استجابات استحسانية في سياق تلقيهم للخطاب السياسي في العالم العربي، يمكن الرجوع إلى: عبد اللطيف، 2009، مرجع سابق، ص 91 – 233.

لقد حاول الفصل الأول كتابة سيرة حياة جمهور الخطابة السياسية في مصر على مدار قرن ونصف من الزمان. وحاول الفصل الثاني كتابة سيرة غير تقليدية لاستجابات الجمهور حول خطبة سياسية حظيت باهتمام استثنائي، غير أن هذا التأريخ للخطابة لا يمكن أن يكتمل إلا بكتابة سيرة حياة أخرى هي سيرة حياة كُتَّاب الخطب الذي يؤلفون النصوص التي يلقيها السياسيون في كل مكان. وهو ما سأتناوله في الفصل الثالث من الكتاب.

الفصل الثالث

الخطابة السياسية

معضلة الكاتب الخفي

تبدو عملية كتابة الخطب السياسية مثيرة لكثير من التشويق، وكثير من التساؤلات أيضا. فحتى أقل الناس اهتمامًا بالخطابة السياسية سوف يُظهر بعض الاهتمام حين يتعلق الحديث بالأشخاص الذين يكتبون الخطب السياسية أو الكيفية التي تُكتب بها. ربما يرجع ذلك إلى الغموض الذي يكتنف هذه العملية، وستار السرية الذي يُحيط بها.

هناك أشكال متعددة من الأنشطة اللفظية الشفاهية والمكتوبة التي يقوم به رئيس الدولة. فهناك مكاتبات إدارية رسمية تحمل اسمه، مثل رسائل تكليف الوزارات أو إقالتها، ورسائل بدء السنة البرلمانية، وتعيين المحافظين والسفراء، والرسائل المتبادلة مع

سياسيين من دول أخرى... إلخ. وهناك مكاتبات إدارية أو إنسانية شبه رسمية مثل الردود على المراسلات التي يبعث بها بعض المواطنين لسبب أو آخر. إضافة إلى ذلك، يوجد كلام رسمي غير إداري مثل الخطب السياسية، والتصريحات الصحفية واللقاءات التليفزيونية أو الإذاعية. وغالبًا ما يقوم كُتَّاب آخرون بكتابة معظم المكاتبات الرسمية الإدارية، التي عادة ما يكون لها صيغ مستقرة متعارف عليها.

يمكن تقسيم الأنشطة اللفظية التي يقوم بها رئيس الدولة إلى نوعين؛ كلام ومكاتبات بالصفة، وكلام ومكاتبات بالذات. هذا التقسيم يستند إلى التمييز الذي أصبح شائعًا بين وضعيتين للمرء؛ وضعيته بصفته التي ترتبط بالمنصب السياسي الذي يشغله أو الدور الاجتماعي الذي يقوم به، ووضعية الإنسان بذاته؛ أي من حيث هو إنسان عادي بمعزل عن مناصبه أو أدواره. وينطبق هذا التمييز أيضًا على النتاج اللغوي لرجل السياسة؛ فهو يكتب الكثير من النصوص، ويلقيها أو يرسلها بصفته رئيس دولة وليس بذاته بوصفه إنسانًا عاديا. لكنه أيضًا يقوم في بعض الأحيان بكتابة بعض النصوص بوصفه شخصًا عاديًا، على النحو الذي نراه في الخطابات الأسرية أو اليوميات والخواطر.

عادة ما يلجأ رئيس الدولة إلى كُتَّاب آخرين لتأليف النصوص

التي يلقيها بصفته؛ في حين يقل الاعتماد على مثل هؤلاء الكُتَّاب في تأليف النصوص التي ينتجها بذاته. ومع ذلك فهناك كتابات تقع على التخوم؛ مثل السير الذاتية التي ينشرها الرؤساء؛ فهي كتابة بالصفة من حيث إنها غالبًا ما تتناول أمورًا تتعلق بالموقع السياسي للرئيس، لكنها أيضًا كتابة بالذات لأنها تتناول مناطق حميمية من حياة الإنسان الذي يكتبها، بغض النظر عن كونه رئيسا. وغالبًا ما يلجأ رؤساء الدول إلى كُتَّاب آخرين ليعينوهم في كتابة سيرهم الذاتية. لكن النشاط اللفظي الأهم الذي يلجأ فيه الرؤساء للكُتَّاب الخفيين هو الخطب السياسية.

لقد ناقشت في دراسة سابقة ظاهرة تأليف الخطب الساسية تطبيقًا على خطب السادات (عبد اللطيف، 2012)، لكنني في هذا الفصل سوف أوسع من دائرة الدراسة لتشمل أيضًا خطب عبد الناصر ومبارك.

تذكر دائرة معارف البلاغة والتأليف البلاغي أن مهنة كتابة الخطب من أقدم المهن في الثقافة الغربية؛ فقد عرفت اليونان القديمة شريحة من دارسي البلاغة الذين كانوا يتكسبون من كتابة الخطب للآخرين[1]. وعلى الرغم من قيام العديد من الشخصيات البارزة

(1) انظر، Enos, T. (ed.). (1996). Ghost – writing in "*Encyclopedia of Rhetoric and Composition: Communication from Ancient Times to the Information Age*", Routledge، ص 286 – 285 بتصرف.

في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر – مثل الرئيس الأمريكي جورج واشنطن – بتوظيف أشخاص لكتابة خطبهم؛ فإن هذا العمل كان يتم في إطار من السرية؛ لأنه كان يُتوقع في هذا العصر أن يكون المرء قادرًا على كتابة الخطب لنفسه، وإلا اتهم بافتقار صفة البلاغة. لقد كان تكليف شخص آخر بكتابة الخطب عملا مشينًا، وكان الكشف عن هذا العمل يُدرج في إطار الفضائح.

هذه النظرة السلبية لمهنة كتابة الخطب السياسية تغيرت في القرن العشرين؛ فقد انتشرت المهنة في أرجاء المجتمع الأمريكي، ثم الأوروبي. ولم تعد وصمةً في جبين من يقوم بها من السياسيين أو الكتاب. لكن ذلك لم يحل دون وجود اتهامات لكُتَّاب الخطب السياسية بافتقاد البعد الأخلاقي. وقد تصاعدت هذه الاتهامات في خمسينيات القرن العشرين استنادًا إلى أن كُتَّاب الخطب السياسية يحققون التأثير في المستمعين بواسطة الإغماض والتضليل؛ ومن ثم فإن عملهم يفتقد إلى الأخلاقية كما أنه يشوه سمعة البلاغة. وقد دافع البعض عن مهنة كتابة الخطب السياسية استنادًا إلى أن المهنة موجودة على مدار التاريخ. وأنها مهنة لا يمكن الاستغناء عنها، وليس من المفيد التقليل من قيمتها أو الادعاء بافتقادها للأخلاق. كما أن الكُتَّاب المجهولين يبذلون جهدًا في دراسة الأساليب البلاغية للشخص الذي يكتبون له، وفي محاولة الاقتراب بكتابتهم من

أسلوبه. كما أنهم لا يقومون سوى بالتعبير عن أفكار الخطيب بأوضح الطرق وأكثر الأساليب رقيًا[1].

يوجد اختلاف كبير بين المجتمعات المختلفة فيما يتعلق بتقاليد مهنة كتابة الخطب السياسية. ففي أمريكا – على سبيل المثال – يقوم بإعداد الخطبة عدد كبير من المستشارين والخبراء متعددي الاختصاصات. فهناك البلاغيون المتخصصون في كتابة مشاريع الخطب السياسية، وخبراء الاتصال الجماهيري وعلماء الاجتماع والنفس والعلوم السياسية... إلخ. كذلك توجد مؤسسات متخصصة في توفير خدمة كتابة الخطب السياسية لكل من يحتاجها. ولا تجد هذه المجتمعات غضاضة في التصريح لاحقًا باسم المؤلف الحقيقي للخطبة، أو الحديث عن عملية تأليفها أو المراجعات التي خضعت لها؛ بل إنه في بعض الأحيان يُدعى مؤلف الخطبة السياسية للحديث عن تجربته في كتابة هذه الخطبة أو تلك.

على خلاف ذلك فإن عملية كتابة الخطب السياسية في مصر غالبًا ما توكل لشخص واحد وليس لفريق من الخبراء وكُتَّاب الخطب. هذا الشخص كثيرًا ما يكون من الصحفيين العاملين في مؤسسات صحفية حكومية أو ناطقة بلسان الحكومة (ما يُعرف الآن بالصحف القومية المملوكة للدولة). فلم يعرف المجتمع المصري مهنة كاتب الخطب الذي يتخصص في هذا النوع من الكتابة، كما لا

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

توجد مؤسسات متخصصة في توفير **خدمة كتابة الخطب السياسية**. وأخيرًا فإن كتابة خطب الرئيس في السياق السياسي المصري يُنظر إليها على أنها مهمة سرية، لا يجوز الكشف عنها أو التصريح بها، أو التطرق لأيٍّ من ملابساتها. وهو ما يفسر أن المعلومات التي تتعلق بهذا الأمر لا يتم الكشف عنها إلا بعد رحيل الحاكم نفسه؛ وهو ما يعني وجود شكل من أشكال الإلزام الصارم لكاتبي الخطب بعدم إفشاء هذا السر. وهو أمر يبدو مفهومًا في إطار مجتمع يظن الكثير من أفراده أن الرئيس هو الذي يكتب خطبه بنفسه! وفي الصفحات الآتية سوف أدرس مسألة تأليف الخطب السياسية التي ألقاها جمال عبد الناصر ومحمد أنور السادات وحسني مبارك.

الكاتب الخفي: من الذي يكتب خطب الرؤساء؟

لا توجد سجلات تاريخية تتضمن معلومات دقيقة عن مؤلفي خطب الرؤساء المصريين. والمعلومات التي توفرت لدينا جاءت من مصدرين أساسيين؛ الأول هو كُتَّاب الخطب أنفسهم من الصحفيين أو السياسيين الذي قاموا بنشر مذكراتهم أو ما أشبه ذلك، والثاني هو إشارات عابرة لبعض من شهدوا واقعة كتابة الخطب أو اتصلوا بمن قام بكتابتها.

لقد ذكر محمد حسنين هيكل أنه ألف العديد من خطب عبد الناصر؛ من أهمها بيان التنحي الذي ألقاه عبد الناصر إثر هزيمة

يونيه 1967. أما قائمة الكُتَّاب الذين صرحوا بأنهم كتبوا خطبًا للسادات فتتضمن أربعة كُتَّاب هم: محمد عبد السلام الزيات، ومحمد حسنين هيكل، وموسى صبري، وأحمد بهاء الدين. ولم يحدد الزيات (1989) الخطب التي قام بكتابتها. أما هيكل (1983)؛ فيشير في ص138، إلى أنه قام بكتابة خطبة السادات في افتتاح الدورة العادية للمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي في 12 نوفمبر 1970. كما ذكر السادات أن هيكل قام بكتابة خطبة أول مايو 1971 فيما عدا الفقرة الأخيرة الخاصة بـ"طحن كل من يحاول إحداث صراع"، التي رفض هيكل كتابتها[1]. وقد أشار آخرون إلى أن هيكل قام بكتابة "خطاب السادات في مجلس الشعب عام 1975، ثم كتب له خطابًا آخر عن إعادة تنظيم العمل الداخلي في مصر، والذي أعلن فيه إسناد رئاسة الوزارة للمرحوم اللواء ممدوح سالم"[2].

فيما يتعلق بموسى صبري (1985) فقد كشف عن أنه كتب خطبة السادات في أثناء الأزمة مع البابا شنودة في 1976، وخطبته في 9 نوفمبر 1977 (المعروفة بخطبة المبادرة)، وخطبته في عيد الصحافة في 1980، وخطبته في أول مايو 1979، أما خطبته الشهيرة في الكنيست الإسرائيلي في 20 نوفمبر 1977 فقد اشترك في كتابتها

(1) نقلا عن حوار أورده: صبري، موسى. (1985). مرجع سابق. ص 251.
(2) انظر، المحلاوي، حنفي. (1997). السادات بين هيكل وموسى. الدار العربية للكتاب، القاهرة، ص 222.

مع أسامة الباز[1]. وأخيرا، كشف أحمد بهاء الدين (1987) أنه كتب خطبة عيد العمال في أول مايو 1976، وخطبة افتتاح البرلمان في 1976، وخطبة ذكرى مرور ربع قرن على حركة يوليو في 1977 [2]. كما توجد بعض المعلومات بخصوص قيام أسامة الباز ومصطفى الفقي ومكرم محمد أحمد وعبد اللطيف المناوي وغيرهم بالمشاركة في تأليف خطب حسني مبارك.

الكاتب والحاكم: تضارب المصالح والرؤى

تبدو مسألة كُتَّاب الخطب من الأهمية بمكان إذا نظرنا إليها من زاوية الدور الذي يقوم به مؤلفو الخطب في صياغة أفكار الحاكم. من الضروري أولا التأكيد على أن رجل السياسة يختار الكاتب الذي يشاطره قناعاته واختياراته ليكون معينًا له في صياغة خطبه السياسية. كما يحاول كُتَّاب الخطب بدورهم تقريب نصوصهم المقدمة لرجل السياسة مما يعتقدون أنها قناعاته واختياراته؛ وإلا جازفوا بفقد عملهم. لكن من الصحيح أيضًا – كما يرى بيير بورديو – أن جزءًا من قناعاتهم واختياراتهم الخاصة تتسرب إلى الخطب، بوعي أو دون وعي. تلك القناعات والاختيارات قد تتلاقى

(1) انظر، صبري. 1985، مرجع سابق، ص 12، وص 315، وص 417، وص 421 – 422، وص 532 – 533.

(2) انظر على الترتيب، ص 100، ص 105 – 106، وص 141.

أو لا تتلاقى مع قناعات واختيارات السياسي الذي سيلقي الخطبة، لكنها في كل الأحوال تخدم مصالح كُتَّاب الخطب بقدر ما. وبحسب نص بورديو فإن "الأيديولوجيات تتحدد دومًا تحديدا مزدوجا، كما أنها لا تدين بأكثر خصائصها نوعية للمصالح الطبقية التي تعبر عنها فحسب، بل للمصالح الخاصة لأولئك الذين يُنتجونها، وللمنطق النوعي الذي يتحكم في مجال الإنتاج، الذي عادة ما ينقلب إلى أيديولوجيا الإبداع والمبدعين[1]".

هذه الفجوة بين مواقف الحاكم واختياراته من ناحية وكاتب خطبه من ناحية أخرى ليست مجرد فجوة نظرية؛ فهي تنعكس في شكل صراع خفي أو معلن بين رؤى ومواقف ومصالح الكاتب والحاكم. وغالبًا ما يتم حسم الصراع بينها بواسطة واحد من اختيارات عدة ممكنة. الاختيار الأول وهو الأكثر شيوعا يتمثل في تخلي الكاتب عن رؤاه ومواقفه وكتابة نص يروج لرؤى الحاكم ومواقفه، على الرغم من اختلافه معها. وهذا هو الاختيار الذي يتوقعه الحاكم وينتظره من الكاتب.

الاختيار الثاني هو أن يرفض الكاتب التعبير عن رؤى الحاكم ومواقفه. وهو الاختيار الأصعب. ويتفرع هذا الاختيار إلى اختيارات فرعية؛ فالكاتب قد يرفض كتابة الخطبة أصلا، أو يحاول دس رؤاه

(1) انظر، بورديو، بيير. (1990). الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ص 95.

ومواقفه الخاصة في مشروعها، أو يتفاوض مع الحاكم لكي يصلا إلى صيغة توافقية. ويمكن أن نضرب أمثلة لهذه الاختيارات من علاقة السادات بكُتَّاب خطبه.

فالاختيار الأول يمثله رفض هيكل لكتابة الفقرة الخاصة بطحن المخالفين[1]، ورفضْ أحمد بهاء الدين لكتابة خطبة السادات إثر أحداث 17 و18 يناير 1977، أو كتابة خطبته إثر تصديقه على إعدام المتورطين في أحداث الفنية العسكرية، وسوف نتعرض للرفضين بالتفصيل فيما بعد.

أما سعي الكاتب لدس رؤاه ومواقفه في مشاريع خطب السادات؛ فمن أمثلته ما ذكره هيكل في خريف الغضب؛ من أنه حرص في

(1) أورد موسى صبري (1985، ص251) تفاصيل هذه الواقعة على لسان السادات. وذكر صبري أن السادات قام بتسجيل ذكرياته عن تلك الفترة في قرية ميت أبو الكوم في شهر رمضان من عام 1977، وفيها يقول السادات: "قبل أول مايو (1971) طلبت من هيكل أن يحضِّر لي خطبة عيد العمال، وأعطيته النقط، وقلت له: في نهاية الخطاب أريد فقرة عن مراكز القوى وعن أنني لن أسمح بأي صراع، ومسئوليتي كرئيس لهذا البلد أن أطحن كل من يحاول إحداث صراع. وقلت لهيكل: هذه الفقرة تكتبها بمنتهى الوضوح. وكتب الخطاب (..) وعند مراجعتي له لم أجد الفقرة التي طلبتها. وفي المساء طلبني هيكل، وسألته لماذا لم تكتب هذه الفقرة؟ فأجابني لأ يا أفندم، اعمل معروف الجزء ده سيادتك تكتبه.

- كده يا هيكل، دي الساعة دلوقت 9 مساء!
- أرجوك يا أفندم.

وفعلا سهرت ليلتها وكتبتها بنفسي.. وفي اليوم التالي قرأت الخطاب. "وتتضمن الحادثة إشارة ضمنية إلى أن قراء الخطبة سوف يميزون كاتب الخطب من أسلوبه.

أثناء كتابته لخطبة افتتاح الدورة العادية للمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي في 12 نوفمبر 1970 أن يُضمِّن صدر الخطاب واقعة معينة "حتى يقولها السادات بلسانه، وحتى يكون ارتباطه بما تحقق من أهداف – ثورة يوليو – ارتباطًا مسجلا عليه[1]". وخلاصة هذه الواقعة – التي أراد هيكل أن يقولها السادات بلسانه – أن عبد الناصر في عام 1969 قال في جلسة ودية جمعت السادات وهيكل إنه متخوف من أن تؤثر مشاكله الصحية على حسن أدائه لواجباته، مُلمحًا إلى تفكيره في التنحي؛ فقال له السادات "ومن هذا الذي يستطيع أن يأتي بعدك؟ إنك جعلتها مسألة صعبة جدًا لمن سيخلفك لا سمح الله. ماذا تركت له لكي يفعل؟ لقد طردت الملك وطردت الإنجليز، وبنيت السد العالي، وحققت إرادة الوحدة العربية، وغيرت وجه مصر كلها. إنني أرثى له هذا الرجل المسكين بصرف النظر عمن يكون".

لقد ذكر السادات بالفعل الواقعة التي أراد له هيكل أن يقولها؛ فقد قال – كما هو منشور في الجزء الأول من خطبه الصادرة عن الهيئة العامة للاستعلامات – ما يأتي: "في مرات كثيرة وأنا معه – يقصد عبد الناصر – نفكر في مستقبل هذه الأمة بعد جيلنا كنت أقول له: إنك جعلت مهمة من سوف يلي المسئولية بعدك مهمة مستحيلة، لأنك أنجزت أكثر مما يحلم إنسان أن ينجز، ولأنك دخلت في الضمير القومي لأمتنا بما لا يترك

(1) انظر، هيكل، محمد حسنين. (1983). خريف الغضب: قصة بداية ونهاية أنور السادات، طبعة دار الأهرام (1988)، القاهرة. هامش ص 138.

مجالا لغيرك، كما أن الناس لن يكفوا عن المقارنة. كنت معه أرثي لحال ذلك الذي سوف يجلس على مقعده بعده، ولم يخطر ببالي قط أن الأقدار سوف تداهمني بهذا الامتحان الرهيب"[1]. وربما يمكن تفسير نجاح ما يصوره هيكل على أنه وضعٌ للجرس في رقبة القط بواسطة ظاهرة راسخة في الخطاب السياسي للسادات في العامين الأولين لتوليه الحكم؛ ألا وهي الاعتماد بشكل شبه كامل على المعجم السياسي لعبد الناصر، والحرص على تقديم صورة إيجابية لعبد الناصر، وإعلان السادات أنه يقتدي بهذه الصورة ويحذو حذوها.

من الأمثلة الأخرى على نجاح الكاتب في تسريب رؤيته ومواقفه إلى النصوص التي تحمل اسم الحاكم ما يرويه غالي شكري حول برنامج العمل الوطني، الذي قدمه السادات في يوليو 1971؛ يقول: "بالرغم من الشائعات القوية التي سادت زمنًا حول قلم الرئيس، والإيحاء بأن هذا أو ذاك من الصحفيين المصريين كان يكتب له مقالاته وكتبه بعد قيام ثورة 1952، إلا أن إنصاف الحقيقة يقتضينا الإقرار بأن الرجل لم يكن بعيدًا عن حرفة الكتابة قبل وأثناء وبعد الثورة. على أن الإنصاف ذاته يقتضينا الإقرار بأن أسلوب برنامج العمل الوطني أبعد ما يكون عن روحية الرئيس السادات في الكتابة وطرائقه في التعبير (..) فضلا عن أن الأفكار – وهذا هو الأهم – التي تضمنها البرنامج، أبعد ما تكون عن رؤيا الرئيس في تاريخه السياسي،

(1) انظر مجموعة خطب وأحاديث الرئيس محمد أنور السادات في الفترة من سبتمبر 1970 إلى ديسمبر 1971، نشر الهيئة العامة للاستعلامات، ص 29.

قبل وأثناء وبعد الثورة. والأرجح أن فريق عمل من المفكرين اليساريين الذين تعاونوا مع الرئيس والاتحاد الاشتراكي الجديد قد تكفل بصياغة هذا البيان. والأغلب أن دور هذا الفريق لم يقتصر على الصياغة اللفظية المجردة، بل منحها فكرًا من عنده. وهو الفكر الذي لا يتناقض مع الخطوة الأولى للرئيس، بغض النظر عن كونها خطوة تكتيكية أو أنها خطوة ذات بعد استراتيجي، أو مجرد مناورة من البداية."[1]

على الرغم من أن كُتَّاب الخطب قد ينجحون في بعض الأحيان في دس رؤاهم في الخطب، فإن سعي الكاتب إلى تعليق الجرس في رقبة الحاكم هي مهمة أقرب إلى الفشل منها إلى النجاح. فالحاكم يمتلك حرية شبه مطلقة في أن يقول ما يرغب في قوله، وأن يحذف ما لا يرغب في قوله. فعلى سبيل المثال ذكر عبد الله إمام أن محمد عبد السلام الزيات – نائب رئيس الوزراء في السنوات الأولى من حكم السادات – "لاحظَ أنه كلما أعد للسادات خطابًا يشير فيه إلى بيان 10 يوليو يحذف بخط يده كل ما يذكِّره بهذا البيان"[2]. وبيان 10 يوليو ليس إلا برنامج العمل القومي الذي سبق لغالي شكري أن وصفه بأنه بعيد كل البعد عن فكر السادات ورؤيته ولغته.

يبرهن على تلك القوة المطلقة في الرفض أو القبول أن النصوص

(1) انظر، شكري، 1978، مرجع سابق، ص 61.

(2) انظر، إمام، عبد الله. (1996). حقيقة السادات. مدبولي، القاهرة، ص 288. وبيان 10 يوليو 1971 يتضمن إعلانا بالتمسك بسياسات عبد الناصر الداخلية والخارجية.

أو الأفكار التي حملت اسم الرئيس؛ إذ تُعبر عن رؤى كتَّابها وإرادتهم لم تكن تتعارض مع مصالح الرئيس في ذلك الوقت. فكل هذه الإشارات تتعلق بموقف السادات من فكر عبد الناصر أو شخصه. وقد كان السادات في السنوات الأولى من حكمه حريصًا بشكل مطلق على إعلان تقديسه لشخص عبد الناصر وتبنيه الكامل لفكره؛ لأنه أدرك أن هذا هو السبيل الوحيد للاستحواذ على قبول الجماهير وتأييدها، قبل أن يؤسس شرعيته الجماهيرية على حرب أكتوبر. وما إن اكتسب السادات شرعية مستقلة حتى انقلب على عبد الناصر شخصًا وفكرا، بل إنه سعى للتخلص من الأشخاص أنفسهم الذين استعان بهم في الفترة السابقة، ممن ظنوا في أنفسهم القدرة على تعليق الجرس في رقبة القط.

يبقى اختيار التفاوض بين الحاكم والكاتب، ومحاولة تسوية الاختلاف بين مواقفهما ورؤاهما أكثر حدوثًا في السياق السياسي المصري. فمن الطبيعي أن لا يختار الحاكم من بين معارضي سياسته من يكتب له الخطب. كما أن رفض الكاتب كتابة مشروع خطاب الحاكم في المجتمعات الديكتاتورية هو قرار صعب للغاية، ومحفوف بمخاطر فعلية على مستقبل هذا الشخص الوظيفي والمهني، وربما على حياته الشخصية أيضا. أما مسألة دس رؤى الكاتب فقد رأينا أنها لا تحدث إلا تحت سمع الحاكم وبصره، أي أنها لا تحدث إلا إذا كان فيها تحقيقًا لمصالحه.

من الأمثلة التي نجح فيها التفاوض بين الحاكم والكاتب الخطبة المهمة التي ألقاها السادات في 14 مايو 1971 في ذروة صراعه على السلطة مع من أطلق عليهم مراكز القوى. يروي هيكل أنه "عندما كان السادات يستعد لتوجيه خطابه إلى الأمة ليخطر جماهير الشعب بتفاصيل صراعه مع مجموعة مراكز القوى، وجدته يريد أن يركز في خطابه على أن خصومه حاولوا أن يمنعوه من التفاوض مع وزير الخارجية الأمريكي (ويليام روجرز). وكان يريد أن يتخذ من تقرير الفريق فوزي إليه برأي القوات المسلحة في مقترحات روجرز ومقترحاته هو ردًا عليها دليله على ذلك. وقلت له في مكتبه بقصر القبة وكان على وشك أن يبدأ خطابه: "إنني أتصور أن القضية المركزية فيما يتعلق بهذا الصراع هي قضية الديمقراطية، فهي القضية التي تهم الناس مباشرة في هذه الظروف، إن الناس يريدون أن يسمعوه وهو يؤكد لهم ضمانات حرياتهم. لقد أفلتوا بالكاد من شبح ديكتاتورية كان يمكن أن تصل في تجاوزاتها إلى بعيد. وعندما جعل السادات من الديمقراطية قضيته الرئيسية فإن الناس بدوا كأنهم جميعًا قد تنفسوا الصعداء"[1].

يحاول هيكل في هذا النص أن يبرز الاختلاف بين فهمه لطبيعة الصراع بين السادات ومراكز القوى، وفهم السادات لهذا الصراع؛ فعلى حين كان يراه هيكل صراعًا بين شبح الديكتاتورية والديمقراطية، كان يراه السادات صراعًا على الصلاحيات السلطوية لرئيس الدولة، وعلى اختيارات التعامل مع مقترحات أمريكا بخصوص سيناء

(1) هيكل، 1983، ص 105.

المحتلة. لكن الواقع أنه لا وجود لهذا الاختلاف في فهم الحدث؛ فالنص يقول بوضوح إن الاختلاف كان في الطريقة التي يرغب كل منهما في تصوير الحدث بواسطتها للناس. وقد استطاع هيكل (الكاتب) أن يضع يده على الورقة الرابحة في استقطاب الجماهير نحو الطرف الذي استطاع القضاء على منافسيه؛ وهي الديمقراطية. وقد استخدم السادات (الحاكم) الورقة التي ألقاها له الكاتب لكي يستحوذ على تأييد الجماهير لقراراته بسجن منافسيه، ولكي يظهر بصورة البطل منقذ الحريات. فقد استطاع تصوير صراع عادي على السلطة على أنه صراع بين الديكتاتورية والديمقراطية، أو بمزيد من التعميم صراع بين الخيرين والأشرار. وهكذا حقق الحاكم مبتغاه وهو تأييد الجماهير لقراراته، وحقق الكاتب مبتغاه وهو دفع الحاكم إلى الحديث عن الديموقراطية والحريات من ناحية، وترسيخ سلطة الطرف الذي قام بمساندته في هذا الصراع من ناحية أخرى.

سوف أحلل في الصفحات الآتية إحدى تجارب كتابة الخطب الرئاسية؛ في محاولة لفهم آليات هذه العملية وتقنياتها من ناحية، والاقتراب من مثال حي للعلاقة متعددة الجوانب التي قد تنشأ بين الحاكم وكاتب خطبه من ناحية أخرى. هي تجربة كتابة أحمد بهاء الدين وموسى صبري لخطب السادات.

لقد اشترك الصحفيان البارزان في كتابة خطب السادات في

الفترة من 1974 إلى 1981. وقد تحدث كلٌّ منهما عن تجربته الخاصة في كتابيهما المُشار إليهما سابقًا. ويجدر بالذكر أن كثيرًا مما ذكره الكاتبان هو نتاج لحوارات شخصية مع السادات، لا توجد وثائق محايدة تؤكده أو تنفيه. فكل ما لدينا هو كلام بهاء الدين وكلام صبري من ناحية وخطب السادات من ناحية أخرى. مع ذلك فإن غياب هذه الوثائق المحايدة لا يؤثر في مصداقية النتائج التي يمكن التوصل إليها من خلال تحليل نصوص بهاء الدين وصبري تأثيرًا كبيرا. إذ من غير المتوقع أن يدَّعي أحدهما أنه كتب خطابًا لم يكتبه؛ أو أن يحكي عن طقوس أو خطوات أو مراحل لكتابة الخطب لم تحدث بالفعل.

لابد وأن نكون واعين بأن تجربة كتابة الخطب السياسية كما يقدمها بهاء الدين وصبري غير قابلة للتعميم على تجارب أخرى (مثل تجربة هيكل في الكتابة لجمال عبد الناصر أو تجربة أسامة الباز في كتابة خطب حسني مبارك مثلا). فلكل تجربة ظروفها وشروطها ومعالمها. ليس أدل على ذلك من وجود اختلافات جوهرية بين تجربتي بهاء الدين وصبري سوف نكشف عنها في الصفحات الآتية. سوف أركز في تحليلي لهذه التجربة على عناصر محددة هي: 1) مراحل كتابة الخطب السياسية وطقوسها، 2) الجدل بين أفكار الحاكم والكاتب وتأثيره على الخطبة، 3) تأثير كاتب الخطب على الأسلوب الخطابي للحاكم.

مراحل كتابة خطب الرؤساء وطقوسها

من المؤكد أننا محظوظون إلى حد كبير لأنه توجد نصوص تصف بتفصيل معقول الطقوس التي تأخذها عملية كتابة خطب السادات. ويزداد تقديرنا لهذا الحظ في ضوء حقيقة أن مثل هذه النصوص قليلة فيما يتعلق بخطب جمال عبد الناصر، وتكاد تكون أقل فيما يتعلق بخطب حسني مبارك.

يصف موسى صبري طقوس كتابة خطب السادات في نص متصل خصصه لذلك الموضوع قائلا:

"منذ أن ترك أحمد بهاء الدين القاهرة عهد إلي الرئيس السادات بمهمة كتابة خطاباته الهامة، وكان أسلوبه أن يدعوني إلى الاجتماع به، ثم يشرح لي الأفكار التي يريد إبرازها، (..) ثم أتصل به بعد أيام عندما أنتهي من كتابة الخطاب، ويحدد لي موعدا، وأذهب إليه لكي أقرأ ما كتبت. ويظل منصتًا وناظرا إلى ساعة يده ليعرف كم من الوقت يستغرق الخطاب. وأحيانًا كان يبدي إعجابه بما كتبت. وأحيانًا كان يترك موضوع الخطاب إلى مناقشات في موضوعات عامة ثم يعكف بعد أن أنصرف على دراسة الخطاب ليلة إلقائه، وكثيرًا ما كان يختصر بعض الفقرات، ويضيف جملا جديدة بقلمه. وفي بعض الأحيان يعدل عن الخطاب كله مكتفيًا بالمقدمة والخاتمة، ويرتجل خطابًا آخر، فيه أفكار أخرى تكون قد طرأت على فكره ليلة إلقاء الخطاب بسبب أحداث لا أعرفها أو بسبب أحداث طارئة معلنة. وفي أحيان كان يقرأ فقرات الخطاب، ثم يتوقف ويرتجل ليشرح ويضيف ويعود إلى أحداث سابقة. وكان في معظم

الأحيان يختار آية قرآنية يختتم بها الخطاب.[1]"

يكشف كلام صبري عن وجود أربع مراحل لعملية كتابة خطب السادات السياسية منذ كونها جنينًا حتى إلقائها أمام الجماهير؛ المرحلة الأولى هي التجهيز للكتابة، والثانية هي إعداد الكاتب لمشروع الخطبة، أما الثالثة فهي مراجعة مشروع الخطبة مع السادات، وأخيرًا تأتي المرحلة الرابعة وهي إلقاء السادات للخطبة. وسوف نتوقف أمام كل مرحلة من هذه المراحل ببعض التفصيل.

أولا: مرحلة التجهيز لكتابة الخطبة السياسية

تتضمن هذه المرحلة تكليف الشخص بكتابة الخطبة، وتحديد الأفكار والموضوعات التي سوف يتناولها، والمنظور الذي يريد أن تقدمه الخطبة. وفي بعض الأحيان تتضمن كذلك نبرة الخطبة ودرجة المباشرة فيها. فعلى سبيل المثال يذكر صبري أن السادات طلب منه كتابة خطبته التي تناول فيها خلافه مع البابا شنودة في منتصف السبعينيات، وطلب منه أن "يكون الحديث عن موقف البابا شنودة متوازنا"، ثم طلب منه بعد ذلك أن يكون الحديث عن موقف البابا شنودة تصعيديا، وأخيرًا طلب منه – بعد أن كتب الخطبة – أن يخفف من نبرتها؛ قائلا: "أنا رجل أعمل بالسياسة وما دامت الأزمة في طريقها إلى الحل من جانب البابا شنودة فلا داعي للتصعيد، وفعلا خففت كثيرًا من كلمات الخطاب[2]".

(1) صبري، (1985)، مرجع سابق، ص 160 – 161.

(2) نفسه، ص 12.

في هذه المرحلة أيضا يقوم بإمداد كاتب الخطب بالوثائق والبيانات التي يحتاجها في كتابة خطبته. ففي الخطبة المشار إليها كان صبري سيتناول – بالإضافة إلى مسألة البابا – مسألة اشتغال القضاة بالسياسة. ويذكر أن "الدكتورة آمال عثمان كانت قد أعدت بحثًا قانونيًا عن عدم تدخل رجال القضاء في العمل السياسي، وأعطاني الرئيس هذا البحث[1]". ومن الممكن كذلك أن يستعين كاتب الخطب من تلقاء نفسه بالوثائق التي تخدم هدف الحاكم. فقد ذكر موسى في سياق آخر أنه أثناء إعداد خطبة السادات بمناسبة عيد الصحافة عثر على لائحة آداب مهنة الصحافة التي وضعها كامل الزهيري، وأنه استخدمها مرجعًا لتحديد ما يريده السادات من الصحفيين، ويذكر أنها "كانت مفاجأة الخطاب"[2].

هناك مسألة مهمة أخرى يتم تناولها في مرحلة التجهيز للكتابة؛ هي تحديد المناطق التي سوف يتم فيها الارتجال داخل سياق الخطبة. فمن المعروف أن السادات – يشترك في هذا مع عبد الناصر ومع مبارك بدرجة أقل – كان يقوم بإدخال فقرات ارتجالية أثناء إلقاء خطبه المكتوبة. فقد كان كثيرًا ما يتوقف عن قراءة النص المكتوب، ويتحدث بشكل مرتجل عن الموضوع نفسه الذي يتحدث عنه النص المكتوب، أو يقوم باستطراد يتناول فيه

(1) نفسه، الصفحة نفسها.

(2) نفسه، ص 532.

موضوعًا ذا صلة. هذا الكلام المرتجل يتم التخطيط له أثناء إعداد الخطبة. فهو لا يُترك كلية للصدفة والظروف، وليس عفويًا بشكل كامل كما نعتقد.

لعل المثال الأبرز على مثل هذا الكلام الارتجالي هو العبارة التي قالها السادات قبيل نهاية خطبته في 19 نوفمبر 1977، والمشهورة **بخطبة المبادرة**، والتي أعلن فيها استعداده للسفر إلى إسرائيل. لقد رأى كثير من المراقبين أن هذه العبارة المرتجلة كانت استطرادا غير مقصود أو فلتة لسان. لكن الواقع أنها لم تكن كذلك. فقد ذكر صبري – الذي كتب خطبة المبادرة – بعد أن استعرض مراحل اقتناع السادات بفكرة زيارة إسرائيل أن "السادات استدعاني إلى لقائه بالقناطر، وناقشني في موضوع خطاب سيلقيه في مجلس الشعب، وأمْلَى علي نقاط الخطاب، ثم قال لي: (وهناك مفاجأة هامة في الخطاب اترك لها مكانا، وسأصرح لك بها عند مراجعة الخطاب معك قبل إلقائه) وراجعت معه الخطاب، ولكنه لم يصرح بالمفاجأة[1]".

لم يصرح السادات لصبري بطبيعة ما سوف يرتجله في خطبة المبادرة، لكنه صرح له بما سوف يرتجله في خطبة أخرى قام صبري بكتابتها أيضا. فأثناء إعداد صبري لخطبة السادات بشأن صراعه مع البابا والقضاة أخبره السادات أنه "يزمع أن يرتجل خارج النص شيئًا عن تاريخ الوحدة الوطنية في مصر، وقرأ عن ذلك كثيرا، واعتمد

(1) انظر، صبري (1985)، مرجع سابق، ص 417.

على مؤلفات عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الوحدة الوطنية منذ مؤتمر الأقباط الذي عُقد في أسيوط عام 1910 [1]". وهكذا فإن كثيرًا مما قد يظهر لنا من كلام السياسيين على أنه مرتجل أو عفو الخاطر هو نتاج تخطيط وجهد واع مدروس؛ إذ نادرًا ما يُترك شيء من كلام السياسيين للصدفة.

إن خطب السياسيين – خاصة في المستويات الحساسة كرئاسة الدولة، وفي المناسبات أو الأحداث ذات الأهمية – يُنتظر فيها أن تكون نتاج تخطيط شامل ودقيق. وفي إطار هذا التخطيط يتم تحديد مواضع الارتجال ومواضع القراءة من النص المكتوب، وما سوف يتم قوله في كل منها. ويقوم كاتب الخطبة بمراعاة هذه الأمور في مرحلة الإعداد للكتابة وأثنائها.

هناك تشابه كبير بين تجربة صبري وتجربة بهاء الدين فيما يتعلق بطقوس مرحلة التجهيز للخطبة. فكلاهما كان يتم استدعاؤه للكتابة، وإمداده ببعض المراجع التي يحتاجها. وكان السادات يتناقش مع كلٍ منهما في موضوع الخطبة، ونبرتها وأهدافها. لكن مع ذلك توجد اختلافات بينهما ربما ترجع إلى أن كلا منهما لم يتناول تجربته في كتابة خطب السادات موضوعًا أساسيًا، وإنما جاءت ملاحظاته وتصريحاته في سياقات اعتراضية؛ أثناء الحديث عن موضوعات أخرى. لكن السبب الأكبر لهذا الاختلاف هو تباين

(1) نفسه، ص 12.

المنظور الذي تبناه كل منهما في سرده لذكرياته وشهادته على تلك الفترة؛ ففي حين بدا صبري مدافعًا صلبًا عن السادات وسياساته وقراراته بكل ما أوتي من قوة على التبرير، بدا بهاء الدين منتقدًا أكثر منه مؤيدا، وبدا كما لو كان راغبًا في نفض يديه من هذا العصر ومن هذه التجربة.

تجلى اختلاف الكاتبين في تقييمهما لعملهما مع السادات بوضوح في مرحلة التجهيز لكتابة الخطاب. ففي حين لم يُشر صبري إلى أي خلاف بينه وبين السادات فيما يتعلق بالأفكار أو القرارات التي يمكن قولها، أو تلك التي لا يمكن قولها في الخطب التي قام بكتابتها فإن محاورات أحمد بهاء الدين حافلة بالأمثلة على هذه الخلافات. كان أبرزها رفضه كتابة خطبة السادات بعد انتفاضة الجوعى في يناير 1977 لأنه غير موافق على ما يرغب السادات في قوله، وسوف نتوقف أمام هذا الرفض بالتفصيل لاحقا.

تكشف تجربة بهاء الدين في مرحلة التجهيز لكتابة الخطب عن مساحة واسعة **للمناورة بين اختيارات الحاكم واختيارات الكاتب**. فالكاتب في هذه المرحلة يمكن أن يتفاوض مع الحاكم حول الأفكار التي سوف تتضمنها الخطبة التي يكتبها. وينتهي هذا التفاوض إما إلى قبول الكاتب فكرة الحاكم، أو إقناعه الحاكم بضرورة التخلي عنها، أو إقناعه بتبني بفكرة جديدة. وهناك أمثلة متعددة على هذه النهايات من تجربة بهاء الدين.

يحكي بهاء الدين أن السادات طلب منه إعلان تحويل المنابر السياسية – منبر الوسط واليمين واليسار – إلى أحزاب في خطبة افتتاح البرلمان في نوفمبر 1976. وهو ما رآه بهاء الدين أمرًا مخالفا للدستور. ويصف بهاء الدين الخلاف الذي نشأ مع السادات حول هذه النقطة في النص الآتي:

"لم يكن هناك مجال لمناقشات طويلة عما سوف يرد في الخطاب بوجه عام، إلا نقطة واحدة أدت إلى نشوب الجدل والنقاش بيننا إلى ما بعد منتصف الليل. قال لي السادات إنه سعيد عموما بالانتخابات. وأنه يعتقد أن تجربة المنابر الثلاثة (اليمين والوسط واليسار) قد نجحت. وأنه يريد أن يعلن في جلسة افتتاح البرلمان قراره بأن تتحول المنابر إلى أحزاب. وقال في تبرير ذلك: إن المنابر الثلاثة خاضت الانتخابات على أنها أحزاب بالفعل، وقدمت للناخبين برامج مختلفة وتصارعت على هذا الأساس فلم يبق إلا إعلان تغيير اسمها لتكون عندنا حياة برلمانية حزبية. وقلت للرئيس إن هذه خطوة عظيمة. ولكن هناك مشكلة بسيطة وهي أن الدستور لا ينص على وجود أحزاب. والحل البسيط هو أن يعلن الرئيس في خطاب الافتتاح هذا الرأي وأن يطلب في الوقت نفسه أن تجتمع اللجنة التشريعية في البرلمان على الفور لإعداد مشروع التعديل الدستوري اللازم لقيام الأحزاب. (..) ولم يوافق السادات على هذا الرأي. (..) **ولذلك كان طبيعيًا أن لا أوافق السادات على ما ذهب إليه في هذا الشأن.**

(..) وأنهى الرئيس السادات الحوار الطويل بعد منتصف الليل بأن قال

لي: **يا أحمد، لازم تكون عرفت طريقتي! طريقتي أن أعلن قراري، وبعد كده نشوف**. إذا كان عايز تعديل نعمل تعديل، وإذا كان عايز قانون نعمل قانون. لأني لو قعدت أدرس في كل قرار علشان يطلع ما يخرش الميه، يبقى عمري ما حاطلع قرارات!! وقال: **كفاية؛ أعلن في الخطاب قيام الأحزاب، وبعد كده نشوف إيه اللي يحتاجه الموقف**.[1]"

لقد انتهى الجدل بين بهاء الدين والسادات بقبول الكاتب لطريقة الحاكم، وقيامه بكتابة ما يرغب في قوله. والملاحظة الأهم هنا هي كيف قام حوار دقيق وعميق بين السادات وبهاء الدين. وكيف كان السادات حريصًا على الإنصات الكامل لحجج بهاء الدين، ومحاولة تفنيدها. وبالمثل كيف كان بهاء الدين حريصًا على الاستماتة في الدفاع عن فكرته التي تتناقض مع فكرة الحاكم. والحوار بمجمله علامة واضحة على حرص السادات على أن يقتنع الكاتب بما سيكتب؛ وحرص الكاتب على أن يكون أمينًا إلى أقصى حد مع الحاكم.

لكن الكاتب قد يُفلح أحيانًا بواسطة التفاوض مع الحاكم أن يثنيه عن قول ما لا يرغب في كتابته. فهو قد ينجح في إقناع الحاكم بالتخلي عن فكرة يرغب في أن يقولها عبر الخطبة. والمثال التالي من تجربة بهاء الدين تحقق فيه ذلك؛ يقول: "استدعاني (السادات) مرة إلى الإسكندرية وقال لي إنه قرر التصديق على الحكم الذي أصدرته المحكمة

(1) انظر، بهاء الدين (1987)، مرجع سابق، ص 105 – 107. والتشديد من عند الباحث.

بالإعدام على المتهمين في قضية الفنية العسكرية؛ أي صالح سرية وجماعته الذين حاولوا الاستيلاء بالقوة على الكلية تمهيدًا لمحاولة انقلاب ساذجة، سقط فيها 17 قتيلا، ثم قال لي إنه يريد أن يقوم بعمل جديد! إنه يريد أن يظهر على شاشة التليفزيون ويلقي خطابًا يشرح فيه للناس لماذا قرر التصديق على حكم الإعدام.. ويومها قلت له فزعا: من أشار عليك يا ريس بذلك؟ هذه مشورة سيئة النية إلى آخر الحدود! وكان منطقي كما قلته له: لقد تمت المحاكمة، وأصدرت المحكمة الحكم بالإعدام، وأحيلت الأوراق إلى المفتي الذي صدَّق على الحكم، وأنت قررت أن تمارس اختصاصك وتصدق بدورك عليه. فلماذا تريد أن تخرج على الناس وتلقي خطابًا تشرح فيه حيثياتك لتنفيذ الإعدام؟! **إنني يا ريس لست مستعدًا لأن أكتب حرفًا واحدًا من هذا الخطاب!! وأنصح بكل شدة ألا تفعل ذلك!** (..) ويومها أيضًا شعر السادات وكأنه كان سيُقدم على غلطة ضخمة؛ فعدل عن قراره الذي أحضرني من القاهرة إلى الإسكندرية بسببه، وشكرني على هذا الرأي[1]". وسوف نلاحظ من كلام بهاء الدين أن المدخل لإثناء الحاكم عن إلقاء خطاب ما يبدأ وينتهي من **حجاج المصالح**؛ وكلما استطاع الكاتب إقناع الحاكم بأن ما سيقوله أمام الجماهير قد لا يكون هو الأكثر خدمةً لمصلحته أصبح الكاتب أكثر قدرة على اجتذاب الحاكم لموقفه.

وأخيرًا فإن الكاتب قد ينجح في إقناع الحاكم بقول فكرة أو اتخاذ قرار ما في خطابه؛ ربما لم تكن لتخطر بباله أبدًا قبل أن

(1) نفسه، ص 140 – 141. والتشديد من عند المؤلِّف.

يشير الكاتب إليها. وهناك مثال واضح لهذا في تجربة بهاء الدين. فهو يحكي أن السادات استدعاه لكتابة خطبته في الذكرى الخامسة والعشرين لحركة يوليو، وطلب منه السادات أن يفكر فيما يمكن أن يقوله في هذه الخطبة. واهتدى بهاء الدين إلى اقتراح أن يعلن السادات في هذه الخطبة عن عفو شامل عن المسجونين السياسيين منذ 1952 حتى 1977: "نظر (السادات) إلي في دهشة من بوغت بشيء غير متوقع، ثم سألني: ماذا تقصد بحكاية العفو الشامل؟ قلت له: أن تقول للناس جميعًا على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم اذهبوا فأنتم الطلقاء".

بعد حوار وجدال طويل استغرق أربع صفحات من كتاب بهاء الدين يذكر أنه: "كان واضحًا لي أن الرئيس السادات قد انشرح صدره للاقتراح بالفعل، بل وصار متحمسًا له، إذ كرر لي شكره على الاقتراح قائلا: إن مشوارك من الكويت برضه جه بفايدة. وعدت إلى القاهرة، وأرسلت الخطاب كاملا ومكتوبًا على الآلة الكاتبة، وفي ختام الخطاب بضع فقرات أذكر أنها تحدثت عن أنه اليوم قد دارت دورة كاملة من دورات الزمن وكلام حول هذا المعنى ينتهي بالسطور القليلة الحاسمة التي تعلن عن قرار العفو الشامل[1]". والمثال السابق واضح الدلالة على الدور الذي يقوم به مؤلفو الخطب السياسية في تحديد ما يمكن قوله في الخطبة، وليس فقط كيف يُقال.

لقد رأينا كيف أن الكاتب يستطيع – في مرحلة تجهيز الخطبة

(1) نفسه ص 145.

– أن يؤثر ليس في طبيعة الأفكار والقرارات التي سوف تتضمنها الخطبة فحسب، بل في ما إذا كانت الخطبة ستظهر إلى الوجود أم لا أيضا. لكن هذا الدور مرهون بوجود كُتَّاب خطب لديهم الرغبة والقدرة على الجدال مع الحاكم، ولا يتعاملون مع أنفسهم بوصفهم مجرد أقلام للرئيس أو سكرتاريته.

هناك اختلاف أخير بين بهاء الدين وصبري في مرحلة تجهيز الخطاب. لقد ذكر صبري أن السادات اعتاد أن "يشرح لي الأفكار التي يريد إبرازها". وعلى العكس من ذلك يذكر بهاء الدين أن السادات "كان كثيرًا ما يقول لي حتى بصدد أخطر الخطابات: **تصرف أنت! وسأقرأ الخطاب بعد ذلك**". وعلى الرغم من أن نص بهاء الدين يوحي بأنه كان يُمنح تفويضًا شبه كامل في تأليف الخطب، فإن حواراته التي أوردها في كتابه تُظهر أن السادات كان يتناقش معه قبل الشروع في تأليف الخطبة في الأفكار التي يرغب في أن يتناولها. وفي الواقع فإن هذه الحوارات كان هدفها توجيه الكاتب نحو الكيفية التي لابد أن **يتصرف** من خلالها أثناء كتابة الخطبة؛ أي تحديد ما يقال وما لا يقال ومنظور القول ونبرته. ومعظم الخلاف الذي حرص بهاء الدين أن يكشف عن وجوده مع السادات كان يرجع إلى هذه الأمور. وربما كان تعبير **تصرف أنت** مقتصرًا على ترتيب الأفكار أو الأجزاء غير المهمة في الخطبة، ولا ينطبق على مجمل عملية كتابة الخطبة.

ثانيا: عملية كتابة الخطبة

لا توجد معلومات كافية عن مرحلة كتابة الخطب في تجربتي بهاء الدين وصبري. ويبدو من نصوصهما أنهما كانا يكتبان الخطب في أماكن خاصة بهما؛ وليس في أحد مكاتب الرئاسة أو استراحاتها. فبهاء الدين يقول إنه بعد أن قابل السادات في استراحة المعمورة ليكلفه بكتابة خطبته في الذكرى الخامسة والعشرين لحركة يوليو، عاد إلى القاهرة وأرسل مشروع الخطبة كاملة إلى الرئيس[1]. ويبدو أن الأمر لم يكن يختلف مع موسى صبري الذي نفهم من كلامه أنه في بعض الأحيان كان يكتب خطب الرئيس في مكتبه بجريدة **أخبار اليوم**. وأنه اعتاد أن يغلق باب مكتبه أثناء كتابتها. فقد حكى أنه أثناء تكليف السادات له بكتابة خطبته في مجلس الشعب إثر اعتقالات سبتمبر 1981 كان متخوفًا من أن يعرف الناس أنه هو الذي سيكتب الخطبة التي يدافع فيه السادات عن اعتقال أعضاء الجماعات الإسلامية؛ ويبدو أن صبري كان يشعر بحرج عقدي بسبب ذلك؛ لكونه مسيحيا. يقول "شعرت بحرج شديد عندما أبلغني الرئيس من المعمورة أنه يعد لي مواد الخطاب، ولم أعترض بكلمة. ولكنني سافرت في اليوم التالي إلى القاهرة، وأمضيت في مكتبي الأسبوع كله، وباب المكتب مفتوح حتى يعرف جميع المحررين أنني غير منشغل بكتابة خطاب

(1) بهاء الدين، أحمد. (1987). محاوراتي مع السادات. دار الهلال، القاهرة، ص 141 – 145.

الرئيس الذي أعلن عن موعد إلقائه[1]". وهكذا فإن صبري استطاع أن يموه على أنه بصدد كتابة خطبة السادات من خلال تغيير طقس من طقوس كتابته للخطب السابقة، وهو إغلاق باب مكتبه عليه.

ثالثًا: مراجعة الخطاب

تكشف تجربتا بهاء الدين وصبري في الكتابة للسادات عن اختلاف جذري في مرحلة مراجعة الخطب؛ فبهاء الدين لا يذكر أن هذه المرحلة موجودة أصلا، فلا يورد أية إشارة إلى أن السادات كان يراجع معه الخطب التي يكتبها، أو يحذف منها أو يضيف إليها. ولم تكن أيٌّ من اللقاءات التي يتحدث عنها في كتابه مخصصة لمراجعة الخطب، أو شيئًا من هذا القبيل. وفي الواقع فإن بهاء الدين أشار في بعض المناسبات إلى أن السادات كان يلقي بعض الخطب التي يقوم بكتابتها بالنص. يقول مثلا متحدثًا عن تجربته في كتابة خطبة السادات في عيد العمال في 1976: "السادات كان سيلقي خطاب عيد العمال في السويس. ولما لم يكن لدى الدولة شيء سياسي أو عمالي جديد يقال، فقد ركزت على الإشادة بدور عمال مصر منذ هزيمة 1967 حتى حرب 1973، من صمودهم في المصانع والموانئ (..) انتهاء بدور جميع عمال مصر في بناء حائط الصواريخ المشهور (..) وهو جهد اشتركت فيه – كما ذكرت في مشروع الخطاب – كل شركات المقاولات العامة والخاصة وكل العمال من أنحاء القطر المصري. وبعد أن عدت من الإسماعيلية، استمعت

(1) صبري، (1985)، مرجع سابق، ص 161.

إلى الرئيس السادات وهو يلقي الخطاب **لم يغير حرفًا واحدًا فيه، لم يقدم كلمة ولم يؤخر أخرى** ولكنه غير شيئًا واحدًا فقط: ففي الحديث عن مشاركة كل العمال من خلال كل شركات المقاولات في بناء حائط الصواريخ، غيَّر الرئيس هذه الجملة وقصر الفضل فيها على ذكر شركة المقاولين العرب وعمال المقاولين العرب (عثمان أحمد عثمان)[1]".

على النقيض من ذلك يذكر صبري بوضوح أن السادات كان يراجع معه الخطب التي يكتبها، ثم يقيس الوقت الذي يستغرقه إلقاؤها. وبعد انصراف صبري "يعكف على دراسة الخطاب ليلة إلقائه، وكثيرًا ما كان يختصر بعض الفقرات، ويضيف جملا جديدة بقلمه. وفي بعض الأحيان يعدل عن الخطاب كله مكتفيًا بالمقدمة والخاتمة"[2]. وصبري بذلك يشير إلى أن ما كان يقدمه للسادات هو مشروع خطبة، يقوم السادات بالعمل عليه حتى يتحول إلى خطبة. ولعل من المفارقات أن بهاء الدين هو الذي كان يستخدم تعبير **كتابة مشروع الخطاب**، بينما كان صبري يستخدم تعبير **كتابة الخطاب**.

على الرغم مما سبق فإن عدم إشارة بهاء الدين إلى مرحلة مراجعة الخطبة لا يعني أنها لم تكن موجودة. فلا يمكن تخيل أن الرئيس – مع تجربته في حرفة الكتابة – لم يكن يتدخل في مشروع خطبته. ويمكن تفسير عدم ذكر بهاء الدين لها بأنها كانت تحدث دون استشارته، أو إلى أنه لم يحدث خلالها حوارات مهمة يمكن

(1) بهاء الدين، (1987)، ص 102 – 103. والتشديد من عند الباحث.
(2) صبري، (1985)، ص 160.

أن تُضاف إلى تلك الحوارات التي أوردها بالفعل.

رابعا: إلقاء الخطبة

يتوقف دور كاتب الخطب السياسية عند مرحلة مراجعة الخطاب. لكنني أضفت هذه المرحلة ليتيسر لنا تتبع ما يحدث لنص الخطبة الذي كتبه الكاتب أثناء إلقاء الحاكم له. ويخبرنا صبري أن السادات كان في بعض الأحيان "يقرأ فقرات الخطاب، ثم يتوقف ويرتجل ليشرح ويضيف ويعود إلى أحداث سابقة". وأنه في بعض الأحيان كان "يعدل عن الخطاب كله مكتفيًا بالمقدمة والخاتمة ويرتجل خطابًا آخر، فيه أفكار أخرى تكون قد طرأت على فكره ليلة إلقاء الخطاب بسبب أحداث لا أعرفها، أو بسبب أحداث طارئة معلنة".

لقد أشار صبري أيضًا إلى أن السادات اعتاد أن يُنهي خطبه بآيات من القرآن الكريم. ويبدو أن هذه الآيات لم تكن جزءًا من الخطب التي يتم إعدادها. وإنما كان السادات يرتجلها. ويبدو هذا جليًا من التسجيلات المرئية لخطبه، والتي يظهر فيها أنه يعتمد على ذاكرته لا على القراءة. ويتسق هذا مع صورة الرئيس المؤمن التي حرص السادات طوال حكمه على إبرازها.

هناك مسألة أخرى تتعلق بكيفية تعامل السادات – أثناء إلقاء الخطبة – مع النص المكتوب. فقد كان يلقيه حرفيا، أو يقرأ جزءًا من النص ثم يشرحه أو يعلق عليه بعبارات مرتجلة، أو يقوم بإعادة صياغة النص المكتوب بواسطة لغة عامية مرتجلة، بحيث يقوم

النص المكتوب بدور إرشادي فحسب.

يعكس الفرق بين مشروع الخطبة الذي يعده الكاتب والخطبة التي يلقيها الحاكم واقع القوى والمصالح، ليس في مؤسسة الرئاسة فحسب، بل في الدولة كلها. وثمة مثال دال في هذا السياق؛ إذ يذكر بهاء الدين أنه اقترح على السادات أثناء حوارهما بخصوص الأفكار التي يمكن أن تتضمنها خطبة السادات في الذكرى الخامسة والعشرين لحركة يوليو أن يعلن في خطبته عفوًا شاملًا بهذه المناسبة. وقد سبق أن تعرضت لهذه الخطبة في سياق الحديث عن تأثير كُتَّاب الخطب في أفكار الخطبة. لكن ما سأهتم به هنا هو تأثير القوى السياسية الأخرى على ما يمكن أن يُقال في الخطب السياسية. لقد اقتنع السادات بفكرة العفو الشامل، وقام بهاء الدين بكتابة الخطبة متضمنة الفكرة، وأرسلها إلى السادات. لكن سيد مرعي – رئيس مجلس الشعب في ذلك الوقت – حاول معرفة ما تحتويه الخطبة، يقول بهاء الدين: "لم أكن أريد أن أذكر أي شيء عن موضوع العفو الشامل الذي سيعلن في الخطاب، لا لسبب معين إلا السلوك الطبيعي وهو أنه ليس من حقي أن أذيع أي شيء عن أي خطاب قبل أن يلقيه صاحبه، ولكنني تحت إحراج لباقة سيد مرعي، وجدت نفسي أقول بشكل غير محدد: أظن أن الرئيس يفكر في نوع من العفو الشامل. وفوجئت بالمهندس سيد مرعي الذي يتميز بهدوء أعصابه وحنكته وابتسامته الدائمة، فوجئت به يتجهم ويسألني بانفعال شديد لم أعرفه في المهندس سيد مرعي لا من قبل

ولا من بعد **يعني إيه عفو شامل** وطلب الاتصال بممدوح سالم – رئيس الوزراء في ذلك الوقت – ولا شك أنه انتبه إلى أنه من الأصوب أن لا يتحدث مع ممدوح سالم في حضوري، فانصرفت. وفي يوم إلقاء السادات الخطاب جلست أمام التليفزيون لأستمع إلى الخطاب. وأخذ السادات يلقي الخطاب بحذافيره، حتى وصل إلى الجزء الأخير وألقى مقدمة الختام أيضًا بحذافيرها (..) ثم أنهى خطابه دون أن يقرأ الأسطر الثلاثة الأخيرة التي تعلن عن العفو الشامل!![1]".

ليس لدينا ما يكشف عما حدث بعد أن عرف رئيس مجلس الشعب ورئيس الوزراء باقتراح العفو الشامل، ولا ما اتفقا على فعله بخصوص هذا الموضوع. لكننا عرفنا النتيجة وهي إسقاط الفكرة على الرغم من اقتناع السادات بها لوهلة. وقد يشير إسقاط الفكرة إلى تأثير مؤسستي مجلس الشعب ورئاسة الوزراء على صياغة خطب الرئيس. لكن هذه الإشارة واهنة في ضوء حقيقة سيطرة الحكم الفردي الممثل في رئيس الدولة على الحكم في تلك الفترة. والأقرب للحدوث هو أن يكون رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب قد مارسا إقناعًا مضادًا لكي يتخلى السادات عن الفكرة.

(1) نفسه، ص 145 – 146. والتشديد من عند الباحث.

جدل الكاتب والحاكم: الاختيار بين كتابة الذات وكتابة القناع

يندر أن يحدث تطابق كامل بين آراء وأفكار كاتب الخطب وآراء وأفكار الحاكم الذي يلقي هذه الخطب في الجماهير. لكن الحاكم يحتاج إلى قلم الكاتب، والكاتب بدوره قد يكون متشوقًا لكي يصبح لسان الحاكم؛ فما العمل؟ كيف يستطيع الكاتب والحاكم التوفيق بين اختلافاتهما ليعبرا عن صوت واحد؟ أو بالأحرى، كيف يستطيع الكاتب – وهو الطرف الأضعف في المعادلة – أن يُلغي، أو يطوع اختلافه ليقترب من توقعات الحاكم؟

نستخلص من تجربتي بهاء الدين وصبري أنه توجد طريقتان في الكتابة لتحقيق هذا التوفيق؛ الطريقة الأولى سوف أسميها **كتابة الذات**، والثانية أسميها **كتابة القناع**. في إطار كتابة القناع يقوم الكاتب بارتداء قناع الحاكم؛ يرى صالحًا ما يراه الحاكم صالحا، ويرى شريرًا ما يراه الحاكم شريرا؛ يحاذيه حذو النعل للنعل، ولا يحيد قيد أنملة عما يعتقد أنه رؤية الحاكم أو موقفه أو اختياراته. بل إن بعض كُتَّاب القناع قد يكونون أكثر حرصًا على التقنع بقناع الحاكم من حرص الحاكم نفسه على نقاء صورته.

أما في إطار كتابة الذات فيقوم الكاتب بالتحرك في إطار مساحة القناعات المشتركة مع الحاكم، ويحاول تضييق الخلافات الموجودة بينهما بواسطة التحاور قبل الكتابة، أو تجاهل الاختلافات الطفيفة التي لا يمكن تسويتها، أو تبني وجهة نظر الحاكم فيها. لكن حين

تكون الاختلافات جذرية فإن الكاتب يختار **صمت الذات،** بديلا لكتابة آخر لا يقبل به. هذا الاختيار هو الذي يفسر لنا موقف بهاء الدين من كتابة خطبة السادات إثر أحداث انتفاضة الجوعى في يناير 1977.

لقد رفض بهاء الدين كتابة الخطبة التي اعتزم السادات إلقاءها بعد مظاهرات يناير. فبعد ساعات طويلة من النقاش بينه وبين السادات وضح الاختلاف بين موقف الرئيس الذي يسعى لتقديم الحدث على أنه انتفاضة حرامية وعملاء وملحدين، وبذلك يكون المخرج هو اللجوء إلى الحديد والنار، والضرب بشدة وبلا هوادة، وموقف الكاتب الذي يرى أن الحدث مجرد احتجاج شعبي على أوضاع اجتماعية واقتصادية مزرية. ومن ثم فإن المخرج هو إعادة النظر في السياسات العامة للدولة؛ خاصة الاقتصادية منها. كلا الإدراكين المختلفين للحدث سوف ينتج عنه إجراءات وقرارات مختلفة للتعامل معه. ولأهمية هذه الواقعة فسوف أنقل بعض فقرات كاملة من وصف بهاء الدين لها. يقول:

"كنت وقت وقوع الانتفاضة في الكويت (..) توقعت أن يستدعيني الرئيس السادات، وصلت إلى القاهرة. وتعمدت ألا أبلغ مباشرة عن وصولي كالعادة حتى أكسب يومين أو ثلاثة أيام، أُلم خلالها بحقيقة ما حدث في مصر. وأدركت أنها كانت **انتفاضة شعبية حقيقية،** وليست **انتفاضة حرامية** كما حاول السادات أن يسميها. وعرفت أن المظاهرات اندلعت بطول القطر كله

من الإسكندرية إلى أسوان (..) كان لا مفر من المواجهة بالرئيس، وهو كما توقعت يطلب إلي أن أكتب خطابًا له يوجهه إلى الجماهير (..) وأنا أخالف كل ما يريد أن يقوله على خط مستقيم، ولا أريد أن أشارك في ذلك.

وبدأت المناقشات الصاخبة حينًا والهادئة حينًا آخر حتى منتصف الليل لم يتخللها أي غداء لأن الرئيس كان في روتينه اليومي لا يتناول الغداء في كثير من الحالات. كان موقفه ببساطة أنه يريد انتهاج سياسة بالغة العنف من الردع والشدة وكان يقول إن الشيوعيين هم الذين افتعلوا المظاهرات ضده، ويريدون أن يسموها انتفاضة شعبية. (..) وقال: إن ما حدث لا يمكن أن أسمح بتكراره مهما حدث.. ولو لجأت إلى الحديد والنار، وأنا أريد أن أتحدث بذلك وبصراحة للناس على شاشة التليفزيون، وأن أُصدر قوانين رادعة حتى ولو لم يسبق لها مثيل". قلت له: إنني أرى الناس مبسوطة بعد كل ما حدث! ما حدث كان مؤسفًا ولكن المواطنين العاديين – كما رأيتهم – مسرورون لإلغاء رفع الأسعار، وشاعرون بأنهم قد كسبوا مطلبًا شعبيًا (..).

(..) كانت خلاصة الرأي السياسي الذي يتجه إليه فكر السادات ومستشاروه هو: إنه **لابد من الضرب بشدة وبلا هوادة**. وكانت خلاصة فكرتي التي قضيت الساعات أشرحها وأدافع عنها أنه شخصيًا لم يمسسه من الأزمة شيء مباشر إذا تغاضينا عن المظاهرات والهتافات التي محاها قراره الشخصي بإلغاء قرار رفع الأسعار، وأنه يجب أن يحشد عددًا أكبر من الطاقات لوضع **سياسة اقتصادية أكثر تماسكًا وواقعية واقترابًا من مشاعر الناس**، ثم يتقدم بهذه السياسة الجديدة إلى الشعب مهما كان فيها من قرارات ضرورية قاسية. ولكنه بالتالي كما نصحته لا يجوز له أن يظهر على التليفزيون ويخاطب الناس قبل

أن يتم كل هذا، فيكون حديثه منصبًا على الحاضر والمستقبل لا على ما حدث وانتهى، ومن غير أن ينسى؛ لأنه إذا أصر على أن يتحدث إلى الناس هذا الأسبوع فإنه لن يتحدث بالطبيعة إلا مدافعًا عن إجراءات خاطئة، وإلا مذكرًا الناس بوقائع مريرة.

حوالي منتصف الليل كان التعب قد بلغ بي وبالرئيس حدًا هائلا، وقد اختلفنا واقعيًا حول كل شيء حتى إنه كان أحيانًا يقول لي: سأتركك تتمدد وتستريح في الحجرة نصف ساعة وأعود إليك. وكان الرئيس قد **أدرك بوضوح أنني لن أشارك بكتابة مشروع خطاب فيما تصورت أنهم مقدمون عليه** (..) وسكت طويلا ثم قال لي في لهجة رقيقة ومجاملة: **طيب يا أحمد، تقدر تروح تستريح، واعتبر إنك لا صلة لك بهذا الموضوع كله!** وودعني – لدهشتي – في مجاملة شديدة. وإن كنت أيضًا حملتها على محمل الوداع الذي لا لقاء بعده.[1]**"**

يبدو النص السابق بالغ الدلالة على ثراء عملية الكتابة للحاكم حين تصبح كتابة ذات لا كتابة قناع. فالكاتب يُلزم نفسه بتحري حقيقة الأحداث التي سيكتب عنها. ثم يدافع عما يعتقد أنه الصواب، ويناقش – بكل ما أوتي من مقدرة على الإقناع والبرهنة – لكي يعيد توجيه لغة السياسة وخطابها نحو ما يرى أنه الأفضل والأنبل. ثم إنه في النهاية يستطيع اتخاذ قرار القفز من السفينة، حين يتبدى له أنها سترسو حيث لا يريد أن يكون.

على الجانب الآخر يبدو السادات من الصورة التي رسمها بهاء

(1) انظر، بهاء الدين، مرجع سابق، ص 125 – 129. والتشديد من عند الباحث.

الدين لحواره معه صبورا إلى أقصى مدى، فهو يقضي ساعات طويلة في محاولة إقناع كاتبه بارتداء قناعه. وحين يأبى الكاتب لم يؤاخذه الحاكم بقراره، وإنما ودعه في رقة ومجاملة تعجب لها الكاتب نفسه. وفي هذا درس آخر لا يقل إيجابية عن الدرس الذي يقدمه موقف الكاتب.

ربما كان استمرار أحمد بهاء الدين في كتابة خطب السادات بعد أحداث انتفاضة الجوعى – آخر خطبة أشار إلى أنه قام بكتابتها هي خطبة السادات في 23 يوليو 1977 – مثيرًا لبعض التساؤلات. مصدر هذه التساؤلات هو موقف بهاء الدين من الاختيارات الأساسية لنظام السادات. فقد كان لبهاء الدين انتقادات جذرية للسياسات الاقتصادية لنظام السادات؛ وهو الذي صك تعبير "انفتاح السداح مداح" ليصف به جوهر هذه السياسات. كما أنه لم يكن راضيًا لا عن الطريقة التي أدار بها السادات التفاوض مع إسرائيل ولا المسار الذي اتخذه نحو العرب. كما أنه يشكك على مدار كتابه بصدق التوجه نحو الديمقراطية، وينتقد بشدة المسافة بين الوعود الوردية التي تقدمها الخطب والواقع الفعلي البائس الذي كان يعيش فيه معظم المصريين. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا يشارك كاتب في صياغة أفكار وتوجهات والتنظير لسياسات لا يؤيدها بشكل كامل؟ لماذا يحمل على عاتقه تبرير سياسات يرفضها، أو الدفاع عن مواقف هو نفسه متحفظ عليها؟ وأخيرا؛ لماذا يقبل أن

يكون أداةً لإقناع الجماهير بأشياء يدرك تمامًا أنها ليست أفضل ما يمكن أن يُقدَّم لهم؟ وعلى الجانب الآخر، لماذا يستعين الرئيس بكاتب يدرك – ولو إلى حد بسيط – أنه يختلف معه؟

ليست لدي أجوبة دقيقة عن الأسئلة الثلاثة الأولى. فعلى الرغم من أن بهاء الدين خصص معظم صفحات كتابه للحديث عن عمله بوصفه كاتبًا لخطب للسادات فإنه لم يتطرق مطلقًا لدوافعه لقبول هذا العمل، ولا للطريقة التي استطاع بواسطتها التكيف مع الاختلافات بينهما. ومع ذلك يمكن تفسير قبول بهاء الدين لهذا العمل من واقع فهمه لشخصية السادات، وبالاستعانة بطبيعة العلاقة بين المثقف والسلطة على نحو عام والصحفي والسلطة في مصر في ظل نظام حركة يوليو على نحو خاص.

من الواضح فيما يتعلق بفهمه لشخصية السادات، أن بهاء الدين لم يكن يحمل تقييمًا سلبيًا لشخصية السادات على الرغم من أن كتابه يقدم موقفًا انتقاديًا لحكمه. ومحاوراته مع السادات تكشف عن إدراكه أن السادات منفتح للنقاش، وحريص على التحاور والتشاور. كما توضح أنه كان يدرك أن السادات يحاول بذل أقصى ما يستطيع لحل القضايا التي تواجه البلاد، وأن المشكلة تكمن في الحلول التي ينحاز إليها لا في مدى الجهد أو الإخلاص.

من زاوية أخرى، فإن العلاقة بين المثقف المصري والسلطة تجعل من حرية المثقف في اتخاذ مواقف على هامش السلطة

السياسية أو في مواجهتها عملا ذو كلفة عالية، وفي بعض الأحيان باهظة. فالسلطة السياسية عادة ما كانت تبذل – في ذلك الوقت – قصارى طاقتها لاحتكار المنافذ الثقافية وأدوات الإنتاج الثقافي معا؛ ومن ثم فإن المثقف المستقل يجد صعوبة في النفاذ إلى وسائل التواصل الجماهيري الحاملة للثقافة. ولنتخيل صعوبة الموقف الذي يجد فيه مثل هذا الصحفي نفسه حين يصبح مغضوبًا عليه من السلطة، ومطرودًا من جنتها، إذا لم يكن يستطيع العيش على هامشها. ومما له دلالة في هذا السياق أن السادات كان قد منع بهاء الدين من الكتابة بعد بيان الأدباء والكُتَّاب الذي طالبوا فيه السادات بخوض معركة لتحرير سيناء في 1972. وأن بهاء الدين أرسل رسالة إلى السادات يطلب منه أن يراجع قراره حتى يتمكن من توفير سبل العيش لنفسه ولمن يعتمدون عليه في توفير سبل عيشهم! والرسالة واضحة الدلالة على **سلطة التجويع** التي تستطيع الدولة المصرية منذ 1952 ممارستها على الصحفيين المعارضين ممن يعملون في الصحف القومية. وبالمقارنة يمكن أن نتخيل **سلطة الإشباع** التي يتم التلويح بها للصحفيين الراغبين في الزود عن حمى النظام والتمسح به.

وإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أن الاقتراب من الحاكم – في إطار سلطة يمتلك فيها الحاكم ذهب المعز بلا قيود – هو في ذاته سلطة كبيرة، وبوابة للحصول على مزايا لا يُستهان بها. فإن من المؤكد

أن هذه المزايا تقوم بدور إغراء كبير بقبول إنتاج خطب سياسية لا تنسجم تمامًا مع قناعات الفرد. وهكذا تصبح مهمة الخطب السياسية متطابقة مع مهمة اللغة السياسية بعامة في عصر التضليل الجماعي. تلك المهمة التي وصفها الروائي العظيم جورج أوريل ذات مرة بأنها **"الدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه"**(1).

ربما كان تفسير اختيار السادات لأشخاص لا تتطابق معه أفكارهم لكتابة خطبه أيسر من تفسير قبول الكاتب للترويج لأفكار يرفضها. فاختيار شخص لكتابة خطب الرئيس في السياق المصري ربما تحدده قدرات هذا الشخص البلاغية بدرجة أكبر من تطابق وجهة نظره مع الحاكم. بصياغة أخرى؛ يأتي معيار قدرة كاتب الخطبة على الإقناع والتأثير في مرتبة سابقة على معيار تطابق ما يؤمن به هذا الكاتب بالفعل مع ما يؤمن به الرئيس. وهو أمر يبدو طبيعيًا في مجتمع يوجد فيه عشرات الكُتَّاب الذين لا يرون أية غضاضة في أن يكونوا لسان النظام الحاكم ينطقون بما يرضى عنه هذا النظام وما يريده؛ بغض النظر عما يرغب لسانهم الفعلي في قوله. إضافة إلى ذلك، فإن مؤسسة الرئاسة ممثلة في الرئيس أو معاونيه يُمدون كاتب الخطب بالرؤى والمنظورات والتصورات والقيم والمعلومات التي يرغب رئيس الدولة في نقلها إلى المواطنين. والكاتب لا يملك

(1) انظر، Orwell, G. 1946, Politics and English Language. Reprinted in "Inside the Whole and Other Essays. London: Penguine, 1962. P353 – 367.

– لكي يستمر في أداء هذه الوظيفة – إلا الالتزام التام بها. كما أن رئيس الدولة لديه حرية مطلقة في قبول مشروع الخطبة التي تقدم له أو رفضها أو طلب تعديلها. وفي الواقع فإن السادات كان يكلف أكثر من شخص بكتابة مشروع خطبة واحدة إذا كان سيلقيها في مناسبة أو ظروف مهمة أو استثنائية – كما هو الحال في خطبة الكنيست – ، ثم يختار هو من بين مشاريع الخطب التي وصلته. ومن المؤكد أن التوافق بين أفكار الرئيس وقناعاته وما تعكسه مشاريع الخطب من أفكار وقناعات هو أحد محددات الاختيار من بينها[1]. وأخيرًا فإن الرئيس يملك أن يُعفي الكاتب من مهمة كتابة الخطبة إذا لم يكن الأخير بارعًا في ارتداء قناع الحاكم.

لقد تتبعنا على مدار الصفحات الماضية ملامح ومراحل وطقوس عملية كتابة الخطب السياسية، مستشهدين بتجربة أحمد بهاء الدين وموسى صبري في الكتابة للسادات. وفي الصفحات الآتية، سوف نناقش بالتفصيل تأثير مرحلة تأليف الخطب في أحد أهم النصوص السياسية في تاريخ مصر الحديث؛ أعني نص بيان التنحي لعبد الناصر.

(1) انظر، محمد، عبد العليم. (1990). الخطاب الساداتي: تحليل الحقل الأيديولوجي للخطاب الساداتي. كتاب الأهالي، القاهرة، ص 98.

هيكل وعبد الناصر: نموذج بيان التنحي[1]

من حسن الحظ أن لدينا معلومات تفصيلية عن عملية كتابة بيان التنحي الذي ألقاه جمال عبد الناصر في مساء التاسع من يونيو 1967 عشية هزيمة يونيو[8]. هذه التفاصيل تعطينا فرصة نادرة لدراسة عملية تشكُّل الخطاب السياسي في لحظة مفصلية من تاريخ مصر المعاصر. كما أنها تتيح لنا تتبع أشكال الصراع التي توجد بين رؤيتين للعالَم تختلفان في أشياء وتتفقان في أشياء أخرى؛ هما رؤية الكاتب والحاكم. وتمكِّننا من معرفة كيف أمكن تسوية التعارضات التي توجد بين الرؤيتين بواسطة عمليات تحاور وتفاوض وتسوية مكثفة، وكيف تعكس الاختيارات اللغوية والبلاغية لكلٍ منهما حدود رؤيته للعالم.

لقد قام هيكل بدور جذري في تشكيل توجهات السياسة المصرية وإيديولوجيتها في الخمسينيات والستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي. فقد قام من ناحية بكتابة معظم خطب عبد الناصر طوال فترة توليه الحكم ومعظم خطب السادات في الفترة من 1970 حتى 1974. كما يُنسب إليه كتابة بعض أهم الوثائق التي حملت توقيع عبد الناصر، وساهمت بشكل محوري في تأسيس مجموعة

(1) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: عبد اللطيف، عماد. بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل إلى التحليل البلاغي للخطاب السياسي. ألف: مجلة البلاغة المقارنة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عدد 30، 2010، ص ص 146 – 175.

القيم والمبادئ والأفكار والمفاهيم التي تبنَّاها نظام عبد الناصر ودافع عنها، ومن أهم هذه الوثائق كتاب فلسفة الثورة. إضافة إلى ذلك، كان هيكل من خلال رئاسته لتحرير جريدة الأهرام – أكثر الجرائد العربية مبيعًا في تلك الفترة – يسهم في توجيه الرأي العام المصري والعربي على نحو ربما لم يتسن لصحفي عربي آخر في العصر الحديث. وبالمثل كان لمقاله الأسبوعي في جريدة الأهرام، الذي حمل عنوان بصراحة، تأثير في صياغة وعي الجماهير وسياسات الحكم لم يتسن لأي مقال أسبوعي آخر.

لم يكن هيكل – وقت كتابة بيان التنحي – مجرد كاتِبَ خُطب، بل كان شريكًا أساسيًّا في الحكم. لقد ذكر أنه كان أحد أشخاص قلائل أُتيح لهم لقاء عبد الناصر والجلوس معه في اليوم السابق على التنحي واليوم الذي تلاه. كما ذكر أن عبد الناصر أعطاه تفويضًا كاملا حين خلد إلى النوم بعد انتهائه من إلقاء البيان، وأن رجال الدولة جميعًا ابتداءً من رئيس مجلس الأمة وانتهاء بوزراء الداخلية والإعلام لم تكن لديهم وسيلة للوصول إلى عبد الناصر نفسه – بعد أن ألقى بيان التنحي – إلا من خلال هيكل. ومن يستمع إلى وصف هيكل للوقائع التي أعقبت إلقاء بيان التنحي لا يساوره شك أنه كان الحاكم الفعلي في تلك السويعات العصيبة. وهكذا فإن هيكل عشية كتابة بيان التنحي لم يكن جزءًا من لسان السلطة ممثلةً في رئيس الدولة فحسب، بل كان جزءًا من قلبها وعقلها ويدها أيضًا.

يصف هيكل وقائع تكليفه بكتابة البيان قائلا: "كان عبد الناصر قد طلب إلي أن أُعدَّ له مشروع خطابه إلى الأمة بالتنحي (..) ولم يكن في مقدوره – إنسانيًا – تلك الليلة مع أحزانه وشواغله أن يجلس ليكتب خطابًا، فاتفق معي على نقاطه، وتعهدت بأن أكتبه له[9]". ويذكر أنه قضى ساعات مع عبد الناصر يتناقشان حول صياغة البيان، في وقت كان العالم من حولهما في حالة غليان حقيقي، وكانت مصر على حد الموسي كما وصفها هيكل. ويبرهن الانشغال لساعات كاملة في صياغة الخطاب في هذا الوقت العصيب على الأهمية التي كانا يوليانها لهذه الصياغة.

على الرغم من اتفاق عبد الناصر وهيكل على نقاط البيان والتلاقي الواضح بين أفكارهما واختياراتهما فقد نشأت بعض الاختلافات بين ما سطَّره هيكل وما أراده عبد الناصر. بعض هذه الاختلافات كان يتعلق بمسائل محورية مثل التعبير عن مدى مسئولية عبد الناصر عن النكسة؛ فقد ذكر هيكل أن عبد الناصر "أقر ما كتبته حتى نقطة: **(إنني على استعداد لتحمل نصيبي من المسئولية)**، عبد الناصر قال لي: لا، اكتب (**أتحمل المسئولية كاملة**)"[10]. وقد أعاد هيكل كتابة العبارة مبقيًا على تعبير (إنني على استعداد)، ومضيفًا إليه (المسئولية كاملة) بدلا من (نصيبي من المسئولية). كما اختلفا حول مسألة من سيخلف عبد الناصر بعد تنحيه. كان رأي عبد الناصر أن يكتب هيكل اسم شمس بدران وزير الحربية في ذلك الوقت؛ لكن هيكل رفض: "أنا

حاولت أكتب اسم شمس بدران ولم يطاوعني أي قلم"[11]. وبالفعل اقتنع عبد الناصر بحجج هيكل المفنِّدة لاختيار شمس بدران، واختار بدلا منه زكريا محيي الدين؛ عضو مجلس قيادة الثورة، الذي شغل منصبي رئيس الوزراء ونائب رئيس الجمهورية. وبالمثل رفض عبد الناصر اختيار هيكل لتعبير النكسة ثم اقتنع به في نهاية الأمر.

يبدو من الأمثلة السابقة للاختلاف بين هيكل وعبد الناصر أن شطرًا كبيرًا من النقاش تعلق مباشرة باختيارات بلاغية؛ مثل الاختيار بين مفردتي (النكسة) و(الهزيمة)؛ أو الاختيار بين تركيب (على استعداد لتحمل)، و(أتحمل)، أو الاختيار بين (المسئولية) و(مسئولية)؛ وهي اختيارات أثرت في المحصلة النهائية للبيان. إضافة إلى أنها تشير إلى وجود اختلاف بين الكاتب والحاكم في نوع البلاغة التي يميل إلى استخدامها؛ ففي حين يبدو عبد الناصر أميل إلى إنتاج بلاغة مباشرة، تُسمِّي الأشياء بأسمائها وتصف الأحداث بأوضح الطرق وأوجزها، يبدو هيكل أميل إلى استخدام بلاغةٍ مراوغة، تَكنِي وتُلطِّف، وتُخفي أكثر مما تُصرح. ويظهر من الصيغة النهائية للبيان أن الكاتب والحاكم كليهما قد انحاز لبلاغة المراوغة في نهاية المطاف.

كُتَّاب خطب مبارك: المستشارون والعائلة

قليلة هي المعلومات التي لدينا عن كُتَّاب خطب مبارك حتى الآن. والدراسة الوحيدة التي حاولت الاقتراب من هذه المسألة

بشكل علمي هي رسالة الدكتوراه التي أعدتها الباحثة الأمريكية ميشيل دُن عن الخطاب السياسي المصري حول الديمقراطية.[1] ومع أن المعلومات التي تقدمها الدراسة محدودة بالفترة من 1998 – 2000؛ فإنها قد تكون مفيدة في الوصول إلى بعض ملامح عملية تأليف خطب مبارك.

وفقًا للنتائج التي توصلت إليها دُن فإن مجموعة محدودة العدد كانت عادة هي المسئولة عن كتابة خطب مبارك في آواخر التسعينيات. فلم يكن يوجد فريق عمل منتظم لكتابة الخطب، ولم يكن يُعتمد على شخص واحد لكتابة خطبه، وهو أمر مختلف عن الفترة المبكرة في حقبة الرئيس مبارك حين كان من المعتاد أن يقوم أسامة الباز المستشار السياسي لمبارك أو مصطفى الفقي (سكرتير الرئيس السابق للمعلومات) بإعداد جميع الخطب.

تذكر دُن كذلك أن المشرف على كتابة الخطب كان يختلف من خطبة إلى خطبة. ووفقًا لأحد المشاركين في كتابة الخطب فإنه "كانت العادة أن شخصًا ما يكتب الخطبة من الألف إلى الياء، لكن الحال لم يعد كذلك". كان يوجد لكل خطبة منسق عام مسئول عن إعداد المسودة الأساسية وعن دمج العناصر التي كتب آخرون

(1) نُشرت الرسالة في كتاب بالإنجليزية عن دار نشر John Benjamins، وصدرت بالعربية في عام 2011، عن المركز القومي للترجمة، بترجمة د/عماد عبد اللطيف. وسوف أعتمد في الصفحات الآتية على اللقاءات التي أجرتها المؤلفة مع بعض كُتَّاب خطب مبارك، وعرضت خلاصتها في الصفحات من 95 – 105 من الترجمة العربية.

مسودتها. في كثير من الحالات – لكن ليس فيها جميعًا – ظل الباز يقوم بدور المنسق. في حالات أخرى كان من يقوم بالتنسيق هو جمال مبارك ابن الرئيس، أو مسئول رسمي رفيع المستوى في مكان آخر داخل الحكومة أو قد يقوم بالتنسيق شخص آخر من الخارج. كما كانت سوزان مبارك تؤدي أيضًا دورًا في توجيه تصريحات الرئيس العامة. وتذكر دُن أيضًا أن يوسف بطرس غالي كان يشارك بشكل منتظم في تأليف الخطب في الأجزاء التي تتعلق بحقيبته الوزارية.

بحسب ما أوردَته دُن فإن مبارك نفسه أدَّى دورًا نشطًا في إعداد خطبه. ففي البداية يلتقي مع المنسق الأساسي ويرسم مخططًا للموضوعات الرئيسية أو "عناوين فرعية" للخطبة. بعد أن يقوم المنسق الأساسي بإعداد المسودة الأولى يقرؤها مبارك ويراجعها، ويطلب إضافات على موضوع أو آخر.

تذكر دُن أن الرئيس نفسه وأسامة الباز كانا لفترة طويلة مركز عملية كتابة مسودات الخطب، يعاونهما فريق عمل صغير يؤدي مهامًا مثل معالجة المفردات والتصحيح النحوي. كانت سوزان مبارك وجمال في فترة لاحقة جزءًا من مركز عملية التأليف أيضًا. بالإضافة إلى ذلك، فإنه أثناء عام 1999 كان يوجد عدد محدود من أشخاص آخرين تتم دعوتهم لعمل المسودة الأساسية للخطب أو مهام تنسيقها، وعدد آخر – أحيانًا من داخل الحكومة أيضًا

لكن عادة من خارجها – يُطلب منهم تقديم أفكار أو لغة محددة للاستخدام في خطب أو تصريحات عامة أخرى.

كان معيار اختيار الأشخاص الذين يؤلفون الخطب هو مدى الولاء الظاهر لمبارك ولسياسة الحزب الوطني. وتنقل دُن عن أحد الأكاديميين الذي كتب مسودة إحدى الخطب وقدم أفكارًا لعديد من الخطب الأخرى في 1999 قوله "إنه اعتاد أن يكتب للرئيس مبارك بشكل منتظم حتى 1987، عندما دعا علنًا إلى إضفاء الشرعية على الإخوان المسلمين. حينها غضب مبارك، وقال لي: "كنت أعتقد أنك معنا!" أعتقد أنه كان يظن أنني كنت أعمل عنده". وقد مرت عشر سنوات قبل أن يطلب الباز مساهمة من هذا الأكاديمي مرة أخرى.

كون معيار الولاء وليس أي معيار آخر هو ما يحتكم إليه مبارك في اختياره لمن يكتبون خطبه؛ يفسر ما لاحظته دُن من تركيز كُتَّاب خطب مبارك على رغباته وطلباته بغض النظر عن أي شيء آخر. وتستنتج أن تركيز "كُتَّاب خطب مبارك بشدة على ما يرون أنها احتياجاته وتفضيلاته، يصل في بعض الأحيان إلى إقصاء عوامل أخرى. ويؤدي أحيانًا بهم إلى أن يُفاجأوا بردود الفعل الدولية على خطاب الرئيس". وقد وصف أحد المشاركين غير الدائمين في كتابة خطب مبارك أن الكُتَّاب الدائمين لخطبه كلهم "بيروقراطيون، إنهم مثل رادار يجلسون صامتين لالتقاط إشارات الرئيس فحسب،

لذلك فهم غالبًا لا يقرؤون الأحداث في العالم الخارجي".

هذه الملاحظات التي أوردتها دون في كتابها لا تكشف على أهميتها إلا القليل للغاية عن عملية كتابة الخطب السياسية في هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر، خاصة خطابات مبارك الثلاثة التي ألقاها أثناء ثورة 25 يناير. وربما يكون انتهاء هذه الحقبة من تاريخ مصر، حافزًا على ظهور معلومات تساعدنا على فهم عملية تأليف الخطب في هذه العقود الثلاثة.

معضلة الأسلوب: منْ هو الرئيس؟

الأسلوب هو الرجل! هكذا يتعلم الطلاب في بداية دراستهم لأساليب الكلام والكتابة؛ سواء في الأدب أم الصحافة أم الحياة اليومية. فالأسلوب الذي نتكلم أو نكتب به يحمل خريطة شخصيتنا بكل ملامحها وتفاصيلها. فعلى صفحة الأسلوب تنعكس تربيتنا والبيئة التي نشأنا فيها وخبراتنا وتجاربنا وثقافتنا ومعارفنا واختياراتنا الاجتماعية والسياسية. وإذا تخيلنا الأسلوب مرآةً؛ فإن ما يقف أمام هذه المرآة هو شخصية الإنسان عارية من كل شيء.

إن عبارة **تكلم حتى أراك** ليست إلا تعبيرًا بليغًا عن قدرة أسلوب المرء على صياغة شخصيته أمام الآخرين. هذه القدرة هي التي تمكننا من الإلمام بمعلومات جوهرية ومهمة عن الشخص بمجرد أن يتكلم. فما إن ينطق بضع عبارات حتى نصبح قادرين على

تخمين البيئة التي خرج منها (بواسطة اللكنة أو اللهجة)، والعمل الذي يمارسه (بواسطة شيوع مفردات بعينها)، ومستوى ثقافته (بواسطة درجة استخدام الفصحى مقارنة بالعامية)، والأفكار التي يعتنقها (بواسطة الذخيرة الخطابية التي يتضمنها كلامه كأن يمتلئ بالمفردات الدينية أو الليبرالية... إلخ)، وطبيعة تفكيره (بواسطة أساليب الحجاج التي يوظفها في الإقناع)، والمستوى الاجتماعي الذي ينتمي إليه (بواسطة شيوع مفردات بعينها، واستخدام الأساليب المباشرة)، بل يمكن من خلال اللغة كذلك التعرف على ملامح دقيقة من شخصيته مثل الوضوح أو الغموض والثقة بالنفس أو اهتزازها من خلال التعرف على درجة استخدام أدوات التوكيد وصيغ المبالغة والمجازات والتراكيب اللغوية... إلخ.

إن حقيقة أن الأسلوب هو الرجل تضعنا أمام معضلة مربكة فيما يتعلق بالخطب السياسية: فالخطبة غالبًا ما يكتبها رجل، ويلقيها رجل آخر؛ فأي رجل منهما يمثله أسلوب الخطبة؟ هل الخطبة هي الرئيس أم الخطبة هي الكاتب؟ وهل يمكن المزج بين أسلوبين بحيث يمكن أن تمثل الخطبة الرجلين معا؟

لقد ذهب بعض المغالين في رفض مهنة كتابة الخطب السياسية إلى أن الرئيس الذي يوكل لغيره مهمة كتابة خطبه يغامر بالاختفاء؛ إذ لا يبقى سوى شخصية كاتبه، وأن عمل كتابة الخطب السياسية يدخل في باب التزييف، لأنه يجعل الجماهير تكوِّن صورة للرئيس

مغايرة لما هو عليه بالفعل[1]. لكن هذه المغالاة في تقدير تأثير كُتَّاب الخطب تواجهها حقائق واضحة؛ منها أن كاتب الخطب ينتهي وجوده بالنسبة للخطبة، في اللحظة التي يقوم الرئيس بإلقائها؛ حين تصبح الخطبة ملكية كاملة للرئيس، ليس لكاتبها الحق في ادعاء أي شيء فيها لنفسه. وبالمثل فإن الجماهير تتعامل مع ما يقوله الحاكم على أنه قول الحاكم، وليس قول مستشاريه أو مساعديه. حتى في دائرة البحث الأكاديمي فإن دارسي الخطب السياسية يدرسون الخطب مفترضين أن ما يقوله الرئيس يمثل أسلوبه وبلاغته بغض النظر عما إذا كان هو من قام بكتابته أو كتبه أشخاص آخرون. وهكذا نقرأ دراسات عن بلاغة حسن نصر الله، ولغة باراك أوباما، وأسلوب هوجو تشافيز دون أن توجد مشكلات حقيقية بسبب وجود أشخاص يكتبون لهم ما يقولون.

ربما كان المدخل الأكثر عملية لدراسة معضلة الأسلوب هو محاولة الوقوف على الملامح الأسلوبية للنصوص أو الكلام الذي يتأكد لدينا أن الرئيس قد كتبه بنفسه، ثم مقارنة ملامح أسلوبه بالملامح الأسلوبية للنصوص أو الكلام الذي كتبه له غيره، وأخيرا، مقارنة أساليب الكُتَّاب المختلفين الذين كتبوا له. هذه المداخل سوف تمكننا من تحديد أسلوب الرئيس مقارنة بأساليب كتَّابِه. كما أنها يمكن أن

(1) انظر على سبيل المثال، Brandt, D. (2007). "Who's the President?": Ghos-writing and Shifting Values in Literacy. *College English*, Volume 69, p249-271

تعيننا على إعادة تصنيف الخطب السياسية؛ من خلال رد الخطب مجهولة المصدر إلى أصحابها استنادًا إلى معايير التشابه الأسلوبي. هذه المعايير تُستخدم **بصمةً أسلوبية**، يمكن من خلالها التعرف على هوية كاتب الخطب. لكن هذه البصمة الأسلوبية يمكن أن تزيَّف إلى حد كبير؛ من خلال عملية **محاكاة الأسلوب**، التي يحرص بعض كُتَّاب الخطب السياسية على إتقانها بهدف إحداث تماهي بين أساليبهم في الكتابة وأسلوب الرئيس في الكتابة والإلقاء معًا.

في سياق حديث موسى صبري عن تجربته في الكتابة للسادات يقول: "وكان يريحه أنني أكتب الخطاب بأسلوبه لا بأسلوبي، ولكي أعبر عنه لا عن نفسي، وكثيرًا ما قال لي: أشعر وأنا أستمع إليك أنك تعبر عني وبأسلوبي، وهذا ما يريحني[1]". تكشف عبارة السادات عن وعيه بالتفاوت بين أسلوبه وأسلوب كُتَّاب خطبه، وأن هذا التفاوت لا يريحه. ومن هنا فهو يعبر عن إعجابه بخطب موسى صبري لأنه يستطيع محاكاة أسلوبه أو التماهي فيه.

يمكن القول – استنادا إلى عبارة السادات – إن ثمة طريقتين لكتابة الخطب السياسية. الطريقة الأولى يقوم فيها الكاتب بمحاكاة أسلوب رجل السياسة في الكلام والكتابة؛ بحيث يبدو النص نتاجًا طبيعيًا لرجل السياسة. الطريقة الثانية يكتب فيها الكاتب الخطبة بأسلوبه هو. وهو ما يؤدي – سواء بقصد أم من غير قصد – إلى

(1) انظر، موسى صبري، (1985)، مرجع سابق، ص 161.

أن تعرف شريحة من الحاضرين ممن لديهم فكرة عن أسلوب الرئيس أن الخطبة ليست من تأليفه؛ بل قد يؤدي ذلك إلى معرفة شخصية مؤلف الخطبة إذا كان من أصحاب الأساليب المعروفة على نطاق واسع. ومن الطبيعي أن يفضل السياسي الطريقة الأولى التي تحقق له هدفًا مزدوجا؛ الأول هو الإفادة من القدرات الإقناعية والتواصلية للكاتب، والثاني هو انتساب الخطبة له على مستوى الأسلوب واللغة. ما استوقفني في عبارة السادات هو استخدامه تعبير هذا ما يريحني عند حديثه عن تفضيله لطريقة صبري في محاكاته. وتعبير **يريحني** يستخدم في العامية المصرية ليفيد إحساسًا بعدم القلق أو التوتر أو الخوف. وسلب الصفة يضعنا أمام حقيقة أن استخدام الكاتب لأسلوب مغاير لأسلوب الحاكم قد يضعه في حالة من القلق أو التوتر؛ استنادًا إلى إدراكه أن المسألة ليست مسألة مفردات وتراكيب فحسب؛ لأن المفردات والتراكيب هي بذاتها مواقف واختيارات.

وقد كان للسادات كل الحق في الإحساس بعدم الراحة من أن بعض كُتَّاب خطبه يكتبون بأساليبهم، وليس بأسلوبه هو. والسبب في ذلك هي الفجوة التي توجد بين أسلوبه وأساليب كُتَّاب مثل محمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين. تلك الفجوة ليست مسألة لغة فحسب بل هي مسألة قناعات ومصالح بالدرجة الأولى كما اتضح

لنا بجلاء حين تناولنا الصراع بين أفكار الحاكم والكاتب. وهو صراع يتجلى من خلال اللغة أولا وقبل كل شيء.

لقد تتبعنا في الفصول السابقة فصلا من فصول حياة الخطابة السياسية. حاولنا خلاله السير في مسارات غير تقليدية لحكاية سيرة حياتها الثرية. فقد تتبعنا تطور علاقتها بالحياة الاجتماعية والسياسية في مصر، والتحولات التي طرأت على الجمهور الذي يتلقاها، وعلى عملية كتابتها وإلقائها. وفي الصفحات الآتية سوف نُطالع بعض أهم الخطب التي ورد ذكرها في هذا الكتاب. وهي خطب ألقيت عادة في ظروف استثنائية من حياة المصريين.

ملحق

مختارات من الخطب السياسية

من خطبة أحمد عرابي في ميدان عابدين في 9 سبتمبر 1881

لسنا عبيدا لأحد. ولن نورَّث بعد اليوم.

من خطبة مصطفى كامل في 22 أكتوبر 1907 في مسرح زيزينيا بالأسكندرية

بمناسبة إعلان تأسيس الحزب الوطني

أيها المصريون:

يظن الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على قضية مصر طويت أوراقها ومات كل أمل وصار الشعب المصري أثرا مثل تلك الآثار التي يأتي السائحون لرؤيتها كل عام. ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرا لأن العزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدة أرشدتنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها. وهي أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها. وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويًا بنفسه مستجمعا لكل عُدد الدفاع عن الشرف والمال والحياة، وأن مصر بالغة آمالها ومحققة أمانيها بإرادتها وحدها.

يرمينا الطاعنون أننا نريد أن نُخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عثمانية؛ أي أننا نريد أن نغير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم النيابي. وهذه التهمة مسبة للمدنية، وقضاء على الأمة المصرية، وأنها لا ترقى ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب؛ لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها

لا يطلبون إحلال نير محتل واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع في تقدمها وارتقائها.

إننا نطلب الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها. وأننا إذا أخلصنا الود لأمة فإننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة. وها هي إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العثمانية، وتغير سياستها نحوها، فمن الذي يلوم المصريين على أن يُحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا.

أشاعوا أيضا أن الحزب الوطني آلة في يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وإنجلترا لإحداث فتنة في البلاد الشرقية الإسلامية التابعة لهما. وما قصدوا بذلك إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا. وإننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء وأنه يطلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يمد يده مساعدا على الوصول إلى الغاية. وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأفظع من انتقادنا السياسة الألمانية نحو المسلمين عامة.

يزعمون أننا نخلط الإسلام بالوطنية ونتكلم دائما عن المسلمين ونطلب إدخال الدين في التعليم. وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم. ولكن كيف لا تكون إنجلترا وألمانيا متعصبتين وهما متمسكتان بالتعليم الديني في مدارسهم بينما نُتهم نحن بالتعصب؟ ولماذا يكون الإنجليزي وطنيًا بروتستانتيًا ولا يكون المصري وطنيًا مسلما.

ونحن حين نرشد أمتنا إلى الحقيقة الدينية فما ذاك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين وساد الجهل والانحطاط وكل الآفات، ولا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي تألَّف وانتظم باسم الدين إلا بالدين نفسه. وإن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين

من أكبر الأسباب المؤدية للتسامح والتقرب من الشعوب إذ لا تعصب مع العلم ولا نفور مع النور والرشاد. ومن منفعة الجميع أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته، وأن تزول الجهالات والخرافات بينهم.

يتهموننا بالتطرف ويُقسمون الأمة فرقا وأقساما، ولكن عليهم أن يعلموا أنه لا يصح أن يوجد في البلاد المحتلة سوى حزب واحد هو حزب الحرية والاستقلال، وسياسة واحدة هي سياسة المطالبة بالاستقلال لا كما يطلب السائل الإحسان، ولكن كما يطلب صاحب الحق حقه المغتصب.

لقد حاربوا الحركة الوطنية بدنشواي فخابوا، وبمضاعفة جيش الاحتلال فأخفقوا، وبتهمة التعصب الديني ففشلوا، وأضحكوا العالم طرا، وها هم يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا بالأمر للدخلاء فلم يبلغوا منا مأربا.

إننا نطلب المجلس النيابي مقرونا بطلب الاستقلال. مجلس نيابي حقيقي لا صورة يُراد بها السخرية وذر الرماد في العيون. لقد زعمت بريطانيا عندما احتلت هذا البلد أنها تريد تأهيل المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عنهم. وكان ذلك مغالطة ومنافقة، ولن يرضى المصريون أو يطمئنوا إلا إذا عادت الحكومة الوطنية بسلطتها وسطوتها وهيبتها، وكانت حكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث مستمدة قوتها من الشعب وعاملةً برغائبه ممتثلةً لأوامره.

نقلا عن محمد عودة: ليبراليون وشموليون وقصة الديمقراطية والحزبية في مصر. كتاب الهلال، 1999، ص 288 – 291.

من خطبة محمد فريد في جمع من المصريين في الإسكندرية في 15 أغسطس 1908

أيها المصريون:

يقول لنا خصومنا السياسيون كيف نطلب الجلاء من أمة عزيزة الجانب كثيرة الجيوش والأساطيل، إن هذا المطلب يُعد تهديدا بل جنونا، إذ لم يكن لنا أساطيل تُعادل الأساطيل الإنجليزية وجيوش تضارع جيوشها؛ أي أننا لا نطلب الجلاء أبد الآبدين.

وحيث إنه من الجنون الحقيقي أن تعتقد بأن مصر يكون لها يوما من الأيام هذه القوة الهائلة فكأنهم يقولون للمصريين: اقبلوا الاحتلال شاكرين وامتثلوا لحكم القوة صاغرين فإن الحق في جانبها دائما، ولذلك ترك بعضهم المطالبة بالجلاء، وسمَّوا هذا التحول اعتدالا في المبدأ، وما هو إلا خيانة كبرى للوطن وبنيه.

وأخذوا من ثمَّ تولية وجوههم شطر لندرة عاصمة الإنجليز لطلب بعض الإصلاحات البسيطة تعمية على الرأي العام وتضليلا له، اعتزازا بوعود بعض أعضاء مجلس النواب الإنجليزي الذين ألَّفوا ما أسموه (اللجنة البرلمانية المصرية) لمساعدة هؤلاء المعتدلين على الإصلاح الداخلي بشرط عدم التعرض للاحتلال بكلمة. (..)

كيف يجوز لمصري أن يسكت عن الاحتلال وعن طلب الجلاء، ولا يجعله في مقدمة أمانيه التي يجهر بها صباح مساء، أو كلمته التي يُسبح بها في الغدو والآصال؟

نَعمَ هي الكلمة التي يجب على الأمهات تلقينها لأولادهن قبل الفطام، فينطقون بها وقت ما يقولون أماه. نَعم يجب عليهن تعليمهم النطق بهذه الكلمة التي معناها خلاص أمهم الحقيقية، وهي مصر من ربقة كل احتلال أجنبي.

ولذلك أعلن هنا أننا براء من كل شخص أو جماعة يقولون بغير الجلاء، أو يرضون بالاحتلال أو يسكتون عنه مرضاة لجماعة من مجلس النواب الإنجليزي، يُغررون بنا ويوهموننا بالمساعدة على نيل الإصلاح، إن نحن قبلنا الاحتلال أو سكتنا عنه.

كيف نقبل الاشتراك في العمل مع قوم هذا مبدؤهم، وتلك غايتهم، وأي إصلاح يُرجى ممن يسعى لابتلاع بلادنا بطريقة قانونية، بعد أن احتلها بطريقة غير شرعية؟

وكيف نساعد المغتصب على تأييد اغتصابه، أو على إعطاء الاغتصاب هذا الشكل القانوني الذي لم يحصل عليه للآن؟

نقلا عن عبد الصبور مرزوق، الخطابة السياسية في مصر من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص 188 – 189.

من خطبة سعد زغلول في جمع من المصريين في فندق ماجستيك بالإسكندرية في 1921

أتوجه والخشوع يملأ جوارحي إلى تلك الأرواح الطاهرة؛ أرواح أولئك الأبطال الذين نادوا بالحق والحق منكَر. ففاضت أرواحهم وألسنتهم تردد ذلك النداء. فاضت وقد شرفونا بإقدامهم، وألزموا الكل باحترام مصر واسمها وبيضوا وجوهنا. والآن فليناموا هادئين فقد انبلج فجر الاستقلال مضمَّخا بدمائهم. وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء. بيض الله برحمته أجداثهم وأسكنهم جنات العلا، وأرضى عن أعمالنا أرواحهم، وأراحهم بتحقيق آمالهم.

لله در الشبيبة ما فعلت. فإنها قد فتحت ما ضمت صدورها من كنوز الفتوة. وملأت حركاتها نظاما. تلك الشبيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة ومبعث أنوارها الساطعة. أشكرها شكرا جزيلا، وأرتاح جدا لأن المستقبل سيكون بيدها وهي يد ماهرة. وأشكر العلماء والقسس الذين باتحادهم أبطلوا حجة في يد الخصوم طالما اتخذوها سلاحا قاطعا. أزالوا الفوارق وأثبتوا أن الديانات واحدة تأمر بالدفاع عن الوطن. وأنه ليس لها تأثير إلا في عبادة الخالق جل وعلا. أما في الوطن فالكل سواء.

وأشكر أيضا الأمراء الذين حملهم ما ورثوه عن آبائهم من المجد والفخار أن ينزلوا إلى صفوفنا وينضموا إلى التاجر والصانع والزارع والعامل، وكل من يُخفي تحت الثياب الزرقاء أو البيضاء نفسا كريمة وقلبا أبيًّا. انضموا إلى هذه الصفوف لأجل أن يستحقوا بعنوان آخر ذلك المجد الذي ورثوه عن الآباء.

فشكرا لهم ثم شكرا. والحق أن كل إنسان من المصريين قد قام بالواجب عليه. وكل نافس أخاه في القيام بهذا الواجب وزاد عليه ليكون ممتازا على أقرانه بشيء في خدمة الوطن العزيز. فكلكم شاكر وكلكم مشكور. ومن مجموع هذه المساعي سارت قضيتنا إلى هذه النقطة الحاضرة. فإننا لما قلنا إن الحماية لاغية أعلنوا اليوم هم أنها ليست باقية وأظهروا استعدادهم لاستبدالها بعلاقة أخرى راضية. والفضل في هذا الفرق العظيم لسعيكم لا لسعيي والتمسك بالمبادئ السامية. فاهنأوا بما نلتم واثبتوا حتى تفوزوا بالأماني الباقية.

نقلا عن سلامة موسى، أشهر الخطب ومشاهير الخطباء، مطبعة الهلال، القاهرة، 1924، ص 66 – 67.

من خطبة محمد نجيب من شرفة قصر عابدين بعد حلفه القسم رئيسا للجمهورية في 23 يونيو 1953

أيها المواطنون:

في مثل موقفي هذا خاطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه المؤمنين قائلا: "أيها الناس، قد وليتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني في استقامة فأعينوني، وإذا أسأت فقوموني". ولست أجد أفضل من هذه الكلمة التي انطلقت من قلب الصدِّيق الطاهر إلى لسانه الشريف لأختم بها قولي وأرفعها دعاءً إلى رب السماوات وربي.

نعم إني لأطلب إليكم أن تسهروا على استقامتي وأن تجعلوها أساس حياتي، وركن الزاوية في حكمي، وأن تعينوني ما دمت حريصا عليها، وأن تقوموني إذا تخليت عنها.

نقلا عن مذكرات اللواء محمد نجيب، كنت رئيسًا لمصر. المكتب المصري الحديث، 1984. ص 197 – 198.

من خطبة جمال عبد الناصر
في عيد الثورة الرابع

"خطاب تأميم قناة السويس"
1956 / 7 / 26

أيها المواطنون:

نحتفل اليوم باستقبال العيد الخامس للثورة.. باستقبال السنة الخامسة للثورة، بعد أن قضينا أربع سنوات نكافح ونجاهد ونقاتل؛ للتخلص من آثار الماضى البغيض.. للتخلص من آثار الماضى الطويل.. للتخلص من آثار الاستعمار الذي استبد بنا قروناً طويلة، وللتخلص من آثار الاستبداد الذي تحكم فينا، وللتخلص من آثار الاستغلال الأجنبى والاستغلال الداخلى.

إننا اليوم – أيها المواطنون – ونحن نستقبل العام الخامس للثورة نستقبله أشد عزماً، وأمضى قوة، وأشد إيماناً. نعم – أيها المواطنون – لقد اتحدنا وثرنا وكافحنا وقاتلنا وجاهدنا وانتصرنا. واليوم ونحن نتجه إلى المستقبل.. اليوم – أيها المواطنون – ونحن نتجه إلى المستقبل، بعد سنوات أربع من الثورة، نتجه بقوة وعزم وإيمان، نعتمد على الله وعلى أنفسنا، نعتمد على الله وعلى عزيمتنا، نعتمد على الله وعلى قوتنا؛ من أجل تحقيق الأهداف

التي قامت من أجلها هذه الثورة. من أجل تحقيق هذه الأهداف التي جاهد من أجلها الآباء والتى كافح من أجلها الأجداد، نتجه إلى المستقبل ونحن نشعر أننا سننتصر – بعون الله – انتصارات متتالية.. انتصارات متتابعة؛ من أجل تثبيت مبادئ العزة، ومن أجل تثبيت مبادئ الحرية، ومن أجل تثبيت مبادئ الكرامة، ومن أجل إقامة دولة مستقلة استقلالاً حقيقياً، لا استقلالاً زائفاً.. استقلالاً سياسياً، واستقلالاً اقتصادياً.

مش عيب أبداً إن أنا أبقى فقير وأحاول استلف وأبنى بلدى، أو أحاول أن أجد مساعدة لأبنى بلدى، ولكن العيب إن أنا أمتص دماء الشعوب وأمتص حقوق الشعوب.. دا العيب.

شركة قنال السويس – اللى قاعدة في باريس – شركة مغتصبة؛ اغتصبت امتيازاتنا.. "ديلسبس" أما جا هنا كان جاى زى ما جا "بلاك" علشان يتكلم معايا، نفس العملية.. التاريخ لن يعيد نفسه، بل بالعكس حنبنى السد العالى، وسنحصل على حقوقنا المغتصبة.. حنبنى السد العالى زى ما احنا عايزين، حنصمم على هذا.. 35 مليون جنيه كل سنة بتاخدها شركة القنال.. ناخدها احنا، 100 مليون دولار كل سنة بتحصلها شركة القنال لمنفعة مصر.. نحقق هذا الكلام، يبقى الـ 100 مليون دولار نحصلهم احنا لمنفعة مصر برضه.

احنا أغنياء.. كنا متهاونين في حقوقنا بنستردها، وقلت لكم في الأول: معركتنا مستمرة، نسترد هذه الحقوق خطوة خطوة، وسنحقق كل شىء.. سنبنى مصر القوية، وسنبنى مصر العزيزة.

لهذا قد وقعت اليوم، ووافقت الحكومة على القانون الآتى:

قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقنال السويس البحرية. (تصفيق وهتاف).

باسم الأمة.. باسم الأمة

رئيس الجمهورية..

مادة 1: تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليًا على إداراتها، ويعوض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة. (..)

أيها المواطنون: إننا لن نمكن المستعمرين أو المستبدين.. إننا لن نقبل أن يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى.. إننا قد اتجهنا قدماً إلى الأمام؛ لنبنى مصر بناء قويًا متينًا.. نتجه إلى الأمام نحو استقلال سياسى واستقلال اقتصادى.. نتجه إلى الأمام نحو اقتصاد قومى من أجل مجموع هذا الشعب.. نتجه إلى الأمام لنعمل، ولكنا حينما نلتفت إلى الخلف إنما نلتفت إلى الخلف لنهدم آثار الماضى.. آثار الاستبداد، آثار الاستعباد، آثار الاستغلال، آثار السيطرة، إنما نتجه إلى الماضى لنقضى على جميع آثاره.

لقد كانت قنال السويس دولة في داخل الدولة، شركة مساهمة مصرية ولكنها تعتمد على المؤامرات الأجنبية، وتعتمد على الاستعمار وأعوان الاستعمار. بنيت قنال السويس من أجل مصر ومن أجل منفعة مصر، ولكن كانت قنال السويس منبعاً للاستغلال واستنزاف المال. وكما قلت لكم منذ قليل ليس عيبًا أن أكون فقيراً أو أن أعمل على بناء بلدى، ولكن العيب امتصاص الدماء.. كانوا يمتصون الدماء، يمتصون حقوقنا ويسلبونها. والسلام عليكم ورحمة الله.

نقلا عن موقع مكتبة الإسكندرية: http://nasser.bibalex.org/Speeches/browser.aspx?SID=495&lang=ar

من خطبة أنور السادات
في افتتاح الدورة الاستثنائية لمجلس الشعب
في 16 أكتوبر 1973

بسم الله

أيها الإخوة والأخوات:

لست أظنكم تتوقعون مني أن أقف أمامكم لكي نتفاخر معًا ونتباهى بما حققناه في أحد عشر يومًا من أهم وأخطر بل وأعظم وأمجد أيام تاريخنا. وربما جاء يوم نجلس فيه معًا لا لكي نتفاخر ونتباهى؛ ولكن لكي نتذكر وندرس ونعلِّم أولادنا وأحفادنا جيلاً بعد جيل، قصة الكفاح ومشاقه، ومرارة الهزيمة وآلامها، وحلاوة النصر وآماله. نعم سوف يجيء يوم نجلس فيه لنقص ونروي ماذا فعل كل منا في موقعه. وكيف حمل كل منا الأمانة، وكيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الأمة في فترة حالكة ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق حتى نستطيع أن نعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء. ذلك كله سوف يجيء وقته. وأظنكم توافقونني على أن لدينا من المشاغل والمهام ما يستحق أن نكرس له وقتنا وجهدنا وإذا جاز لي أن أتوقف قليلاً وأنا أعلم أنني أتوق شوقاً إلى سماع الكثير فإنني أقول ما يلي:

لقد كان كل شيء منوطاً بإرادة هذه الأمة؛ حجم هذه الإرادة وعمق هذه

الإرادة. وما كنا نستطيع شيئاً، وما كان أحد ليستطيع شيئاً لو لم يكن هذا الشعب، ولو لم تكن هذه الأمة. لقد كان الليل طويلاً وثقيلاً ولكن الأمة لم تفقد إيمانها أبداً بطلوع الفجر. وإني لأقول بغير ادعاء أن التاريخ سوف يسجل لهذه الأمة إن نكستها لم تكن سقوطاً، وإنما كانت كبوة عارضة، وإن حركتها لم تكن فورانًا وإنما كانت ارتفاعًا شاهقًا. لقد أعطى شعبنا جهدًا غير محدود، وقدم شعبنا تضحيات غير محدودة وأظهر شعبنا وعيًا غير محدود. وأهم من ذلك كله؛ أهم من الجهد والتضحيات والوعي فإن الشعب احتفظ بإيمان غير محدود. وكان ذلك هو الخط الفاصل بين النكسة والهزيمة. ولقد كنت أحس بذلك من أول يوم تحملت فيه مسئوليتي. وقبلت راضيًا بما شاء الله أن يضعه على كاهلي. كنت أعرف أن إيمان الشعب هو القاعدة. وإذا كانت القاعدة سليمة فإن كل ما ضاع يمكن تعويضه، وكل ما تراجعنا عنه نستطيع الانطلاق إليه مرة أخرى. وبرغم ظواهر عديدة بعضها طبيعي وبعضها مصطنع من تأثير حرب نفسية وجهت إلينا فقد كان سؤالي لنفسي ولغيري في كل يوم يمر هل القاعدة سليمة؟ وكنت واثقًا أنه ليس في قدرة أية حرب نفسية مهما كانت ضراوتها أن تمس صلابة هذه القاعدة وما دامت القاعدة بخير فإن كل شيء بخير وغير ذلك لن يكون إلا زوبعة في فنجان كما يقولون.

إن القوات المسلحة المصرية قامت بمعجزة على أعلى مقياس عسكري. ولقد شاركت مع جمال عبد الناصر في عملية إعادة بناء القوات المسلحة. ثم شاءت الأقدار أن أتحمل مسئولية استكمال البناء ومسئولية القيادة العليا لها. إن القوات المسلحة قامت بمعجزة على أعلى مقياس عسكري. استوعبت العصر كله تدريبًا وسلاحًا بل وعلمًا واقتداراً. حين أصدرت لها الأمر أن ترد على استفزاز العدو، وأن تكبح جماح غروره فإنها أثبتت نفسها. إن هذه القوات أخذت في يدها بعد صدور الأمر لها زمام المبادرة وحققت مفاجأة العدو وأفقدته توازنه بحركاتها السريعة.

إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلاً أمام عملية يوم 6 أكتوبر 1973. ولست أتجاوز إذا قلت إن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلاً بالفحص والدرس أمام عملية يوم 6 أكتوبر 73، حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب، واجتياز خط بارليف المنيع وعبور الضفة الشرقية من القناة بعد أن أفقدت العدو توازنه.

أيها الإخوة والأخوات

هذه ساعات نعرف فيها أنفسنا ونعرف فيها الأصدقاء ونعرف فيها الأعداء. ولقد عرفنا أنفسنا، ولقد عرفنا أصدقاءنا وكانوا بأصدق وأخلص ما نطلب من الأصدقاء. ولقد كنا نعرف عدونا دائماً ولسنا نريد أن نزيد من أعدائنا، بل إننا لنوجه الكلمة بعد الكلمة والتنبيه بعد التنبيه، والتحذير بعد التحذير لكي نعطي للجميع فرصة يراجعون ولعلهم يتراجعون. لكننا بعون الله قادرون بعد الكلمة وبعد التنبيه وبعد التحذير أن نوجه الضربة بعد الضربة. ولسوف نعرف متى وأين وكيف إذا أرادوا التصاعد فيما يفعلون. الأمة العربية كلها وأسمح لنفسي أن أعبر عنها، لن تنسى مواقف هذه الساعات. إن الأمة العربية لم تنس أصدقاءها هذه الساعات الذين يقفون معها ولن تنسى أعداء هذه الساعات الذين يقفون مع عدونا. ربنا كن لن عونا وهدى.. ربنا وبارك لنا في شعبنا وأمتنا.. ربنا إنك وعدت ووعدك الحق "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم".

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

النص الكامل لخطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما بالقاهرة [1]

إنه لمن دواعي شرفي أن أزور مدينة القاهرة الأزلية حيث تستضيفني فيها مؤسستان مرموقتان للغاية إحداهما الأزهر الذي بقي لأكثر من ألف سنة منارة العلوم الإسلامية، بينما كانت جامعة القاهرة على مدى أكثر من قرن بمثابة منهل من مناهل التقدم في مصر، ومعا تمثلان حسن الاتساق والانسجام ما بين التقاليد والتقدم.

وإنني ممتن لكم لحسن ضيافتكم ولحفاوة شعب مصر، كما أنني فخور بنقل أطيب مشاعر الشعب الأميركي لكم مقرونة بتحية السلام من المجتمعات المحلية المسلمة في بلدي: السلام عليكم.

إننا نلتقي في وقت يشوبه التوتر بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، وهو توتر تمتد جذوره إلى قوى تاريخية تتجاوز أي نقاش سياسي راهن. وتشمل العلاقة بين الإسلام والغرب قرونا سادها حسن التعايش والتعاون، كما تشمل هذه العلاقة صراعات وحروبا دينية.

(1) هذا هو نص الترجمة الرسمية المعدة سلفا لخطاب أوباما؛ نقلا عن:
/http://archive.arabic.cnn.com/2009/world/6/4/Obama.speech

وساهم الاستعمار خلال العصر الحديث في تغذية التوتر بسبب حرمان العديد من المسلمين من الحقوق والفرص، كما ساهم في ذلك الحرب الباردة التي عوملت فيها كثير من البلدان ذات الأغلبية المسلمة – بلا حق – كأنها مجرد دول وكيلة يجب عدم مراعاة تطلعاتها الخاصة. وعلاوة على ذلك حدا التغيير الكاسح الذي رافقته الحداثة والعولمة بالعديد من المسلمين إلى اعتبار الغرب معاديا لتقاليد الإسلام.

لقد استغل المتطرفون الذين يمارسون العنف هذه التوترات في قطاع صغير من العالم الإسلامي بشكل فعال، ثم وقعت أحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001. واستمر هؤلاء المتطرفون في مساعيهم الرامية إلى ارتكاب أعمال العنف ضد المدنيين، الأمر الذي حدا بالبعض في بلدي إلى اعتبار الإسلام معاديا لا محالة، ليس فقط لأميركا والبلدان الغربية، وإنما أيضا لحقوق الإنسان، ونتج عن ذلك مزيد من الخوف وعدم الثقة.

هذا، وما لم نتوقف عن تحديد مفهوم علاقاتنا المشتركة من خلال أوجه الاختلاف فيما بيننا، فإننا سنساهم في تمكين أولئك الذين يزرعون الكراهية ويرجحونها على السلام ويروجون للصراعات ويرجحونها على التعاون الذي من شأنه أن يساعد شعوبنا على تحقيق الازدهار.

هذه هي دائرة الارتياب والشقاق التي يجب علينا إنهاؤها.. لقد أتيت إلى هنا للبحث عن بداية جديدة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي استنادا إلى المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل، وهي بداية مبنية على أساس حقيقة أن أميركا والإسلام لا تعارضان بعضها البعض، ولا داعي أبدا للتنافس فيما بينهما، بل إن لهما قواسم ومبادئ مشتركة يلتقيان عبرها ألا وهي مبادئ العدالة والتقدم والتسامح وكرامة كل إنسان.

إنني أقوم بذلك وأنا أدرك أن التغيير لا يحدث بين ليلة وضحاها، ولا يمكن لخطاب واحد أن يلغي سنوات من عدم الثقة، كما لا يمكنني أن أقدم الإجابة على كافة المسائل المعقدة التي أدت بنا إلى هذه النقطة، غير أنني على يقين من أنه يجب علينا من أجل المضي قدما أن نعبر بصراحة عما هو في قلوبنا وعما هو لا يقال إلا خلف الأبواب المغلقة.

كما يجب أن يتم بذل جهود مستديمة للاستماع إلى بعضنا البعض وللتعلم من بعضنا البعض وللاحترام المتبادل والبحث عن أرضية مشتركة، وينص القرآن الكريم على ما يلي "اتقوا الله وقولوا قولا سديدا" وهذا ما سأحاول – بما في وسعي – أن أفعله، وأن أقول الحقيقة بكل تواضع أمام المهمة التي نحن بصددها اعتقادا مني كل الاعتقاد أن المصالح المشتركة بيننا كبشر هي أقوى بكثير من القوى الفاصلة بيننا.

يعود جزء من اعتقادي هذا إلى تجربتي الشخصية، أنني مسيحي بينما كان والدي من أسرة كينية تشمل أجيالا من المسلمين، ولما كنت صبيا قضيت عدة سنوات في إندونيسيا واستمعت إلى الأذان ساعات الفجر والمغرب، ولما كنت شابا عملت في المجتمعات المحلية بمدينة شيكاغو حيث وجد الكثير من المسلمين في عقيدتهم روح الكرامة والسلام.

إنني أدرك بحكم دراستي للتاريخ أن الحضارة مدينة للإسلام الذي حمل معه في أماكن – مثل جامعة الأزهر – نور العلم عبر قرون عدة، الأمر الذي مهد الطريق أمام النهضة الأوروبية وعصر التنوير، ونجد روح الابتكار الذي ساد المجتمعات الإسلامية وراء تطوير علم الجبر وكذلك البوصلة المغناطسية وأدوات الملاحة وفن الأقلام والطباعة، بالإضافة إلى فهمنا لانتشار الأمراض وتوفير العلاج المناسب لها.

حصلنا بفضل الثقافة الإسلامية على أروقة عظيمة وقمم مستدقة عالية الارتفاع، وكذلك على أشعار وموسيقى خالدة الذكر وفن الخط الراقي وأماكن التأمل السلمي، وأظهر الأسلام على مدى التاريخ قلبا وقالبا الفرص الكامنة في التسامح الديني والمساواة بين الأعراق.

أعلم كذلك أن الإسلام كان دائما جزءا لا يتجزأ من قصة أميركا، حيث كان المغرب أول بلد اعترف بالولايات المتحدة الأميركية، وبمناسبة توقيع الرئيس الأميركي الثاني جون أدامس عام 1796 على معاهدة طرابلس فقد كتب ذلك الرئيس أن "الولايات المتحدة لا تكن أي نوع من العداوة تجاه قوانين أو ديانة المسلمين أو حتى راحتهم".

منذ عصر تأسيس بلدنا ساهم المسلمون الأميركان في إثراء الولايات المتحدة.. لقد قاتلوا في حروبنا وخدموا في المناصب الحكومية ودافعوا عن الحقوق المدنية وأسسوا المؤسسات التجارية، كما قاموا بالتدريس في جامعاتنا وتفوقوا في الملاعب الرياضية وفازوا بجوائز نوبل وبنوا أكثر عماراتنا ارتفاعا وأشعلوا الشعلة الأولمبية، وعندما تم أخيرا انتخاب أول مسلم أميركي في الكونغرس قام ذلك النائب بأداء اليمين الدستورية مستخدما نفس النسخة من القرآن الكريم التي احتفظ بها أحد آبائنا المؤسسين توماس جيفرسون في مكتبته الخاصة.

إنني إذن تعرفت على الإسلام في قارات ثلاث قبل مجيئي إلى المنطقة التي نشأ فيها الإسلام، ومن منطلق تجربتي الشخصية أستمد اعتقادي بأن الشراكة بين أميركا والإسلام يجب أن تستند إلى حقيقة الإسلام وليس إلى ما هو غير إسلامي، وأرى في ذلك جزءا من مسؤوليتي كرئيس للولايات المتحدة حتى أتصدى للصور النمطية السلبية عن الإسلام أينما ظهرت.

لكن نفس المبدأ يجب أن ينطبق على صورة أميركا لدى الآخرين، ومثلما لا تنطبق على المسلمين الصورة النمطية البدائية فإن الصورة النمطية البدائية للإمبراطورية التي لا تهتم إلا بمصالح نفسها لا تنطبق على أميركا، فقد كانت الولايات المتحدة أحد أكبر المناهل للتقدم عبر تاريخ العالم، وقمنا بثورة ضد إحدى الإمبراطوريات، وأسست دولتنا على أساس مثال مفاده أن جميع البشر قد خلقوا سواسية، كما سالت دماؤنا في الصراعات عبر القرون لإضفاء المعنى على هذه الكلمات داخل حدودنا وفي مختلف أرجاء العالم.

وقد ساهمت كافة الثقافات من كل أنحاء الكرة الأرضية في تكويننا تكريسا لمفهوم بالغ البساطة باللغة اللاتينية: من الكثير واحد. لقد تم تعليق أهمية كبيرة على إمكانية انتخاب شخص من أصل أميركي أفريقي يدعى باراك حسين أوباما إلى منصب الرئيس، ولكن قصتي الشخصية ليست فريدة إلى هذا الحد، ولم يتحقق حلم الفرص المتاحة للجميع بالنسبة لكل فرد في أميركا، ولكن الوعد قائم بالنسبة لجميع من يصل إلى شواطئنا، ويشمل ذلك ما يضاهي سبعة ملايين من المسلمين الأميركان في بلدنا اليوم. ويحظى المسلمون الأميركان بدخل ومستوى للتعليم يعتبران أعلى مما يحظى به معدل السكان.

علاوة على ذلك لا يمكن فصل الحرية في أميركا عن حرية إقامة الشعائر الدينية، كما أن ذلك السبب وراء وجود مسجد في كل ولاية من الولايات المتحدة ووجود أكثر من 1200 مسجد داخل حدودنا، وهو أيضا السبب وراء خوض الحكومة الأميركية إجراءات المقاضاة من أجل صون حق النساء والفتيات في ارتداء الحجاب ومعاقبة من يتجرأ على حرمانهن من ذلك الحق.

ليس هناك أي شك في أن الإسلام جزء لا يتجزأ من أميركا، وأعتقد أن أميركا تمثل التطلعات المشتركة بيننا جميعا بغض النظر عن العرق أو الديانة أو المكانة الاجتماعية، ألا وهي تطلعات العيش في ظل السلام والأمن

والحصول على التعليم والعمل بكرامة والتعبير عن المحبة التي نكنها لعائلاتنا ومجتمعاتنا وكذلك لربنا، هذه هي قواسمنا المشتركة وهي تمثل أيضا آمال البشرية جمعاء.

يمثل إدراك أوجه الإنسانية المشتركة فيما بيننا بطبيعة الحال مجرد البداية لمهمتنا.. إن الكلمات لوحدها لا تستطيع سد احتياجات شعوبنا، ولن نسد هذه الاحتياجات إلا إذا عملنا بشجاعة على مدى السنين القادمة وإذا أدركنا حقيقة أن التحديات التي نواجهها تحديات مشتركة، وإذا أخفقنا في التصدي لها سيلحق ذلك الأذى بنا جميعا.

لقد تعلمنا من تجاربنا الأخيرة ما يحدث من إلحاق الضرر بالرفاهية في كل مكان إذا ضعف النظام المالي في بلد واحد، وإذا أصيب شخص واحد بالإنفلونزا فسيعرض ذلك الجميع للخطر، وإذا سعى بلد واحد وراء امتلاك السلاح النووي فسيزداد خطر وقوع هجوم نووي بالنسبة لكل الدول، وعندما يمارس المتطرفون العنف في منطقة جبلية واحدة سيعرض ذلك الناس من وراء البحار للخطر، وعندما يتم ذبح الأبرياء في دارفور والبوسنة سيسبب ذلك وصمة في ضميرنا المشترك، هذا هو معنى التشارك في هذا العالم في القرن الحادي والعشرين، وهذه هي المسؤولية التي يتحملها كل منا تجاه الآخر كأبناء البشرية.

إنها مسؤولية تصعب مباشرتها، وكان تاريخ البشرية في كثير من الأحيان بمثابة سجل من الشعوب والقبائل التي قمعت بعضها البعض لخدمة تحقيق مصلحتها الخاصة، ولكن في عصرنا الحديث تؤدي مثل هذه التوجهات إلى إلحاق الهزيمة بالنفس، ونظرا إلى الاعتماد الدولي المتبادل.

فأي نظام عالمي يعلي شعبا أو مجموعة من البشر فوق غيرهم سيبوء

بالفشل لا محالة، وبغض النظر عن أفكارنا حول أحداث الماضي يجب أن لا نصبح أبدا سجناء لأحداث مضت، وإنما يجب معالجة مشاكلنا بواسطة الشراكة كما يجب أن نحقق التقدم بصفة مشتركة.

لا يعني ذلك بالنسبة لنا أن نفضل التغاضي عن مصادر التوتر، وفي الحقيقة فإن العكس هو الأرجح، يجب علينا مجابهة هذه التوترات بصفة مفتوحة، واسمحوا لي انطلاقا من هذه الروح أن أتطرق بمنتهى الصراحة وأكبر قدر ممكن من البساطة إلى بعض الأمور المحددة التي أعتقد أنه يتعين علينا مواجهتها في نهاية المطاف بجهد مشترك.

المسألة الأولى التي يجب أن نجابهها هي **التطرف العنيف** بكافة أشكاله، وقد صرحت في مدينة أنقرة بكل وضوح أن أميركا ليست ولن تكون أبدا في حالة حرب مع الإسلام، وعلى أية حال سنتصدى لمتطرفي العنف الذين يشكلون تهديدا جسيما لأمننا، والسبب هو أننا نرفض ما يرفضه أهل كافة المعتقدات: قتل الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. ومن واجباتي كرئيس أن أتولى حماية الشعب الأميركي.

يبين الوضع في أفغانستان أهداف أميركا وحاجتنا إلى العمل المشترك، وقبل أكثر من سبع سنوات قامت الولايات المتحدة بملاحقة تنظيم القاعدة ونظام طالبان بدعم دولي واسع النطاق.. لم نذهب إلى هناك باختيارنا وإنما بسبب الضرورة.

إنني على وعي بالتساؤلات التي يطرحها البعض بالنسبة لأحداث 11 سبتمبر أو حتى تبريرهم لتلك الأحداث، ولكن دعونا نكون صرحاء.. قتل تنظيم القاعدة ما يضاهي 3000 شخص في ذلك اليوم، وكان الضحايا من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، ورغم ذلك اختارت القاعدة بلا ضمير قتل

هؤلاء الأبرياء، وتباهت بالهجوم وتؤكد – إلى الآن – عزمها على ارتكاب القتل مجددا وبأعداد ضخمة.

إن هناك للقاعدة من ينتسبون لها في عدة بلدان وممن يسعون إلى توسعة نطاق أنشطتهم، وما أقوله ليس بآراء قابلة للنقاش وإنما هي حقائق يجب معالجتها، ولا بد أن تكونوا على علم بأننا لا نريد من جيشنا أن يبقى في أفغانستان ولا نسعى لإقامة قواعد عسكرية هناك.. خسائرنا بين الشباب والشابات هناك تسبب لأميركا بالغ الأذى، كما يسبب استمرار هذا النزاع تكاليف باهظة ومصاعب سياسية جمة، ونريد بكل سرور أن نرحب بكافة جنودنا وهم عائدون إلى الوطن إذا استطعنا أن نكون واثقين من عدم وجود متطرفي العنف في كل من أفغانستان وباكستان والذين يحرصون على قتل أكبر عدد ممكن من الأميركيين.

ورغم ذلك كله لن تشهد أميركا أي حالة من الضعف لإرادتها، ولا ينبغي لأحد منا أن يتسامح مع أولئك المتطرفين.. لقد مارسوا القتل في كثير من البلدان، لقد قتلوا أبناء مختلف العقائد ومعظم ضحاياهم من المسلمين.. إن أعمالهم غير متطابقة على الإطلاق مع كل من حقوق البشر وتقدم الأمم والإسلام، إذ ينص القران الكريم على أن "من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا".

ولا شك أن العقيدة التي يتحلى بها أكثر من مليار مسلم تفوق عظمتها بشكل كبير الكراهية الضيقة التي يكنها البعض.. إن الإسلام ليس جزءا من المشكلة المتلخصة في مكافحة التطرف العنيف، وإنما يجب أن يكون الإسلام جزءا من حل هذه المشكلة.

علاوة على ذلك نعلم أن القوة العسكرية وحدها لن تكفي لحل المشاكل في

كل من أفغانستان وباكستان، ولذلك وضعنا خطة لاستثمار 1.5 مليار دولار سنويا على مدى السنوات الخمس القادمة لإقامة شراكة مع الباكستانيين لبناء المدارس والمستشفيات والطرق والمؤسسات التجارية، وكذلك توفير مئات الملايين لمساعدة النازحين، وهذا أيضا السبب وراء قيامنا بتخصيص ما يربو على 2.8 مليار دولار لمساعدة الأفغان على تنمية اقتصادهم وتوفير خدمات يعتمد عليها الشعب.

اسمحوا لي أيضا أن أتطرق إلى موضوع العراق، لقد اختلف الوضع هناك عن الوضع في أفغانستان، حيث وقع القرار بحرب العراق بصفة اختيارية مما أثار خلافات شديدة سواء في بلدي أو في الخارج، ورغم اعتقادي بأن الشعب العراقي في نهاية المطاف هو الطرف المستفيد في معادلة التخلص من الطاغية صدام حسين، فإنني أعتقد أيضا أن أحداث العراق قد ذكرت أميركا بضرورة استخدام الدبلوماسية لتسوية مشاكلنا كلما كان ذلك ممكنا. وفي الحقيقة إننا نستذكر كلمات أحد كبار رؤسائنا توماس جيفرسون الذي قال "إنني أتمنى أن تنمو حكمتنا بقدر ما تنمو قوتنا، وأن تعلمنا هذه الحكمة درسا مفاده أن القوة ستزداد عظمة كلما قل استخدامها".

تتحمل أميركا اليوم مسؤولية مزدوجة تتلخص في مساعدة العراق على بناء مستقبل أفضل وترك العراق للعراقيين.. إنني أوضحت للشعب العراقي أننا لا نسعى لإقامة أية قواعد في العراق أو لمطالبة العراق بأي من أراضيه أو موارده، فالعراق يتمتع بسيادته الخاصة به بمفرده، لذا أصدرت الأوامر بسحب الوحدات القتالية مع حلول شهر أغسطس/آب القادم، ولذا سنحترم الاتفاق المبرم مع الحكومة العراقية المنتخبة بأسلوب ديمقراطي والذي يقضي بسحب القوات القتالية من المدن العراقية بحلول شهر يوليو/تموز، وكذلك سحب جميع قواتنا بحلول عام 2012.. سنساعد العراق على تدريب قواته

الأمنية وتنمية اقتصاده، ولكننا سنقدم الدعم للعراق الآمن والموحد بصفتنا شريكا له وليس بصفة الراعي.

وأخيرا مثلما لا يمكن لأميركا أن تتسامح مع عنف المتطرفين يجب علينا أن لا نغير مبادئنا أبدا. قد ألحقت أحداث 11 سبتمبر إصابة ضخمة ببلدنا، حيث يمكن تفهم مدى الخوف والغضب الذي خلفته تلك الأحداث، ولكن في بعض الحالات أدى ذلك إلى القيام بأعمال تخالف مبادئنا.. إننا نتخذ إجراءات محددة لتغيير الاتجاه وقد قمت بمنع استخدام أساليب التعذيب من قبل الولايات المتحدة منعا باتا، كما أصدرت الأوامر بإغلاق السجن في خليج غوانتانامو مع حلول مطلع العام القادم.

نحن في أميركا سندافع عن أنفسنا محترمين في ذلك سيادة الدول وحكم القانون، وسنقوم بذلك في إطار الشراكة بيننا وبين المجتمعات الإسلامية التي يحدق بها الخطر أيضا لأننا سنحقق مستوى أعلى من الأمن في وقت أقرب إذا نجحنا بصفة سريعة في عزل المتطرفين مع عدم التسامح معهم داخل المجتمعات الإسلامية.

أما **المصدر الرئيسي الثاني للتوتر** الذي أود مناقشته هو **الوضع بين الإسرائيليين والفلسطينيين والعالم العربي**.

إن متانة الأواصر الرابطة بين أميركا وإسرائيل معروفة على نطاق واسع ولا يمكن قطع هذه الأواصر أبدا، وهي تستند إلى علاقات ثقافية وتاريخية، وكذلك الاعتراف بأن رغبة اليهود في وجود وطن خاص لهم هي رغبة متأصلة في تاريخ مأساوي لا يمكن لأحد نفيه.

لقد تعرض اليهود على مر القرون للاضطهاد وتفاقمت أحوال معاداة السامية بوقوع المحرقة التي لم يسبق لها عبر التاريخ أي مثيل، وإنني سأقوم

غدا بزيارة معسكر بوخنفالد الذي كان جزءا من شبكة معسكرات الموت التي استخدمت لاسترقاق وتعذيب وقتل اليهود رميا بالأسلحة النارية وتسميما بالغازات. لقد تم قتل 6 ملايين من اليهود، يعني أكثر من إجمالي عدد اليهود بين سكان إسرائيل اليوم.

إن نفي هذه الحقيقة أمر لا أساس له وينم عن الجهل وبالغ الكراهية، كما أن تهديد إسرائيل بتدميرها أو تكرار الصور النمطية الحقيرة عن اليهود هما أمران ظالمان للغاية ولا يخدمان إلا غرض استحضار تلك الأحداث الأكثر إيذاء إلى أذهان الإسرائيليين، وكذلك منع حلول السلام الذي يستحقه سكان هذه المنطقة.

أما من ناحية أخرى فلا يمكن نفي أن الشعب الفلسطيني بمسلميه ومسيحييه قد عانى أيضا في سعيه لإقامة وطن خاص له، وقد تحمل الفلسطينيون آلام النزوح على مدى أكثر من 60 عاما، حيث ينتظر العديد منهم في الضفة الغربية وغزة والبلدان المجاورة لكي يعيشوا حياة يسودها السلام والأمن، هذه الحياة التي لم يستطيعوا عيشها حتى الآن.. يتحمل الفلسطينيون الإهانات اليومية – صغيرة كانت أم كبيرة – الناتجة عن الاحتلال، وليس هناك أي شك في أن وضع الفلسطينيين لا يطاق، ولن تدير أميركا ظهرها عن التطلعات المشروعة للفلسطينيين ألا وهي تطلعات الكرامة ووجود الفرص ودولة خاصة بهم.

لقد استمرت حالة الجمود لعشرات السنوات: شعبان لكل منهما طموحاته المشروعة ولكل منهما تاريخ مؤلم يجعل من التراضي أمرا صعب المنال. إن توجيه اللوم أمر سهل، إذ يشير الفلسطينيون إلى تأسيس دولة إسرائيل وما أدت إليه من تشريد للفلسطينيين، ويشير الإسرائيليون إلى العداء المستمر والاعتداءات التي يتعرضون لها داخل حدود إسرائيل وخارج هذه الحدود على مدى التاريخ، ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الصراع من هذا الجانب أو من

الجانب الآخر، فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة لأن السبيل الوحيد للتوصل إلى تحقيق طموحات الطرفين يكون من خلال دولتين يستطيع فيهما الإسرائيليون والفلسطينيون أن يعيشوا في سلام وأمن.

إن هذا السبيل يخدم مصلحة إسرائيل ومصلحة فلسطين ومصلحة أميركا، ولذلك سأسعى شخصياً للوصول إلى هذه النتيجة متحليا بالقدر اللازم من الصبر الذي تقتضيه هذه المهمة.

إن الالتزامات التي وافق عليها الطرفان بموجب خريطة الطريق هي التزامات واضحة. لقد آن الأوان – من أجل إحلال السلام – لكي يتحمل الجانبان مسؤولياتهما، ولكي نتحمل جميعنا مسؤولياتنا.

كما يجب على الفلسطينيين أن يتخلوا عن العنف.. إن المقاومة عبر العنف والقتل أسلوب خاطئ ولا يؤدي إلى النجاح.

لقد عانى السود في أميركا طوال قرون من الزمن من سوط العبودية ومن مهانة التفرقة والفصل بين البيض والسود، ولكن العنف لم يكن السبيل الذي مكنهم من الحصول على حقوقهم الكاملة والمتساوية، بل كان السبيل إلى ذلك إصرارهم وعزمهم السلمي على الالتزام بالمثل التي كانت بمثابة الركيزة التي اعتمد عليها مؤسسو أميركا، وهذا هو ذات التاريخ الذي شاهدته شعوب كثيرة تشمل شعب جنوب أفريقيا وجنوب آسيا وأوروبا الشرقية وإندونيسيا.

وينطوي هذا التاريخ على حقيقة بسيطة ألا وهي أن طريق العنف طريق مسدود وأن إطلاق الصواريخ على الأطفال الإسرائيليين في مضاجعهم أو تفجير حافلة على متنها سيدات مسنات لا يعبر عن الشجاعة أو عن القوة، ولا يمكن اكتساب سلطة التأثير المعنوي عبر مثل هذه الأعمال، إذ يؤدي هذا الأسلوب إلى التنازل عن هذه السلطة.

والآن على الفلسطينيين تركيز اهتمامهم على الأشياء التي يستطيعون إنجازها، ويجب على السلطة الفلسطينية تنمية قدرتها على ممارسة الحكم من خلال مؤسسات تقدم خدمات للشعب وتلبي احتياجاته.

إن حركة حماس تحظى بالدعم من قبل بعض الفلسطينيين، ولكنها تتحمل مسؤوليات كذلك. ويتعين على حركة حماس حتى تؤدي دورها في تلبية طموحات الفلسطينيين وتوحيد الشعب الفلسطيني، أن تضع حداً للعنف وأن تعترف بالاتفاقات السابقة وأن تعترف بحق إسرائيل في البقاء.

وفي نفس الوقت يجب على الإسرائيليين الإقرار بأن حق فلسطين في البقاء حق لا يمكن إنكاره، مثلما لا يمكن إنكار حق إسرائيل في البقاء.

إن الولايات المتحدة لا تقبل مشروعية من يتحدثون عن إلقاء إسرائيل في البحر، كما أننا لا نقبل مشروعية استمرار المستوطنات الإسرائيلية. إن عمليات البناء هذه تنتهك الاتفاقات السابقة وتقوض من الجهود المبذولة لتحقيق السلام.. لقد آن الأوان لكي تتوقف هذه المستوطنات.

كما يجب على إسرائيل أن تفي بالتزاماتها لتأمين تمكين الفلسطينيين من أن يعيشوا ويعملوا ويطوروا مجتمعهم، لأن أمن إسرائيل لا يتحقق عبر الأزمة الإنسانية في غزة التي تصيب الأسر الفلسطينية بالهلاك أو عبر انعدام الفرص في الضفة الغربية.

إن التقدم في الحياة اليومية التي يعيشها الشعب الفلسطيني يجب أن يكون جزءا من الطريق المؤدي إلى السلام، ويجب على إسرائيل أن تتخذ خطوات ملموسة لتحقيق مثل هذا التقدم.

وأخيرا يجب على الدول العربية أن تعترف بأن مبادرة السلام العربية كانت بداية هامة، وأن مسؤولياتها لا تنتهي بهذه المبادرة، كما ينبغي عليها أن

لا تستخدم الصراع بين العرب وإسرائيل لإلهاء الشعوب العربية عن مشاكلها الأخرى، بل يجب أن تكون هذه المبادرة سببا لحثهم على العمل لمساعدة الشعب الفلسطيني على تطوير مؤسساته التي ستعمل على مساندة الدولة الفلسطينية ومساعدة الشعب الفلسطيني على الاعتراف بشرعية إسرائيل، واختيار سبيل التقدم بدلا من السبيل الانهزامي الذي يركز الاهتمام على الماضي.

ستنسق أميركا سياساتها مع سياسات أولئك الذين يسعون من أجل السلام، وستكون تصريحاتنا التي تصدر علنا هي ذات التصريحات التي نعبر عنها في اجتماعاتنا الخاصة مع الإسرائيليين والفلسطينيين والعرب.. إننا لا نستطيع أن نفرض السلام، ويدرك الكثير من المسلمين في قرارة أنفسهم أن إسرائيل لن تختفي، وبالمثل يدرك الكثير من الإسرائيليين أن دولة فلسطينية أمر ضروري.

لقد آن الأوان للقيام بعمل يعتمد على الحقيقة التي يدركها الجميع.. لقد تدفقت دموع الكثيرين وسالت دماء الكثيرين، وعلينا جميعا تقع مسؤولية العمل من أجل ذلك اليوم الذي تستطيع فيه أمهات الإسرائيليين والفلسطينيين مشاهدة أبنائهم يتقدمون في حياتهم دون خوف، وعندها تصبح الأرض المقدسة التي نشأت فيها الأديان الثلاثة العظيمة مكانا للسلام الذي أراده الله لها، وعندها تصبح مدينة القدس وطنا دائما لليهود والمسيحيين والمسلمين، المكان الذي يستطيع فيه أبناء سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يتعايشوا في سلام تماما كما ورد في قصة الإسراء عندما أقام الأنبياء موسى وعيسى ومحمد سلام الله عليهم الصلاة معا.

إن **المصدر الثالث للتوتر** يتعلق باهتمامنا المشترك بحقوق الدول ومسؤولياتها بشأن **الأسلحة النووية**.. لقد كان هذا الموضوع مصدرا للتوتر الذي طرأ مؤخرا على العلاقات بين الولايات المتحدة وجمهورية إيران الإسلامية التي ظلت

لسنوات كثيرة تعبر عن هويتها من خلال موقفها المناهض لبلدي، والتاريخ بين بلدينا تاريخ عاصف بالفعل، إذ لعبت الولايات المتحدة إبان فترة الحرب الباردة دورا في الإطاحة بالحكومة الإيرانية المنتخبة بأسلوب ديمقراطي.

أما إيران فإنها لعبت دورا منذ قيام الثورة الإسلامية بأعمال اختطاف الرهائن وأعمال العنف ضد الجنود والمدنيين الأميركيين..

هذا التاريخ معروف.. لقد أعلنت بوضوح لقادة إيران وشعبها أن بلدي بدلا من أن يتقيد بالماضي يقف مستعدا للمضي قدما.

والسؤال المطروح الآن لا يتعلق بالأمور التي تناهضها إيران، ولكنه يرتبط بالمستقبل الذي تريد إيران أن تبنيه. إن التغلب على فقدان الثقة الذي استمر لعشرات السنوات سيكون صعبا، ولكننا سنمضي قدما مسلحين بالشجاعة واستقامة النوايا والعزم. سيكون هناك الكثير من القضايا التي سيناقشها البلدان، ونحن مستعدون للمضي قدما دون شروط مسبقة على أساس الاحترام المتبادل.

إن الأمر الواضح لجميع المعنيين بموضوع الأسلحة النووية أننا قد وصلنا إلى نقطة تتطلب الحسم، وهي ببساطة لا ترتبط بمصالح أميركا ولكنها ترتبط بمنع سباق للتسلح النووي قد يدفع بالمنطقة إلى طريق محفوف بالمخاطر ويدمر النظام العالمي لمنع انتشار الأسلحة النووية.

إنني مدرك أن البعض يعترض على حيازة بعض الدول لأسلحة لا توجد مثلها لدى دول أخرى، ولا ينبغي على أية دولة أن تختار الدول التي تملك أسلحة نووية، وهذا هو سبب تأكيدي مجددا وبشدة على التزام أميركا بالسعي من أجل عدم امتلاك أي من الدول للأسلحة النووية، وينبغي على أية دولة بما فيها إيران أن يكون لها حق الوصول إلى الطاقة النووية السلمية إذا امتثلت لمسؤولياتها بموجب معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، وهذا الالتزام جوهري

في المعاهدة ويجب الحفاظ عليه من أجل جميع الملتزمين به.

الموضوع الرابع الذي أريد أن أتطرق إليه هو **الديمقراطية**..

إن نظام الحكم الذي يسمع صوت الشعب ويحترم حكم القانون وحقوق جميع البشر هو النظام الذي أؤمن به، وأعلم أن جدلا حول تعزيز الديمقراطية وحقوق جميع البشر كان يدور خلال السنوات الأخيرة، وأن جزءا كبيرا من هذا الجدل كان متصلا بالحرب في العراق.

اسمحوا لي أن أتحدث بوضوح وأقول ما يلي: لا يمكن لأية دولة ولا ينبغي لأية دولة أن تفرض نظاما للحكم على أية دولة أخرى، ومع ذلك لن يقلل ذلك من التزامي تجاه الحكومات التي تعبر عن إرادة الشعب، حيث يتم التعبير عن هذا المبدأ في كل دولة وفقا لتقاليد شعبها.

إن أميركا لا تفترض أنها تعلم ما هو الأفضل بالنسبة للجميع، كما أننا لا نفترض أن تكون نتائج الانتخابات السلمية هي النتائج التي نختارها، ومع ذلك يلازمني اعتقاد راسخ بأن جميع البشر يتطلعون لامتلاك قدرة التعبير عن أفكارهم وآرائهم في أسلوب الحكم المتبع في بلدهم، ويتطلعون للشعور بالثقة في حكم القانون وفي الالتزام بالعدالة والمساواة في تطبيقه، ويتطلعون كذلك لشفافية الحكومة وامتناعها عن نهب أموال الشعب، ويتطلعون لحرية اختيار طريقهم في الحياة.

إن هذه الأفكار ليست أفكارا أميركية فحسب، بل هي حقوق إنسانية، وهي لذلك الحقوق التي سندعمها في كل مكان.

لا يوجد طريق سهل ومستقيم لتلبية هذا الوعد، ولكن الأمر الواضح بالتأكيد هو أن الحكومات التي تحمي هذه الحقوق هي في نهاية المطاف الحكومات التي تتمتع بقدر أكبر من الاستقرار والنجاح والأمن. إن قمع الأفكار لا ينجح

أبدا في القضاء عليها.. إن أميركا تحترم حق جميع من يرفعون أصواتهم حول العالم للتعبير عن آرائهم بأسلوب سلمي يراعي القانون، حتى لو كانت آراؤهم مخالفة لآرائنا، وسنرحب بجميع الحكومات السلمية المنتخبة شرط أن تحترم جميع أفراد الشعب في ممارستها للحكم.

هذه النقطة لها أهميتها لأن البعض لا ينادون بالديمقراطية إلا عندما يكونون خارج مراكز السلطة، ولا يرحمون الغير في ممارساتهم القمعية لحقوق الآخرين عند وصولهم إلى السلطة.

إن الحكومة التي تتكون من أفراد الشعب وتدار بواسطة الشعب هي المعيار الوحيد لجميع من يشغلون مراكز السلطة، بغض النظر عن المكان الذي تتولى فيه مثل هذه الحكومة ممارسة مهامها، إذ يجب على الحكام أن يمارسوا سلطاتهم عبر الاتفاق في الرأي وليس عبر الإكراه، ويجب على الحكام أن يحترموا حقوق الأقليات وأن يعطوا مصالح الشعب الأولوية على مصالح الحزب الذي ينتمون إليه.

أما **الموضوع الخامس** الذي يجب علينا الوقوف أمامه معا، فهو **موضوع الحرية الدينية**.

إن التسامح تقليد عريق يفخر به الإسلام.. لقد شاهدت بنفسي هذا التسامح عندما كنت طفلا في إندونيسيا، إذ كان المسيحيون في ذلك البلد الذي يشكل فيه المسلمون الغالبية يمارسون طقوسهم الدينية بحرية. إن روح التسامح التي شاهدتها هناك هي ما نحتاجه اليوم، إذ يجب أن تتمتع الشعوب في جميع البلدان بحرية اختيار العقيدة وأسلوب الحياة القائم على ما تمليه عليهم عقولهم وقلوبهم وأرواحهم بغض النظر عن العقيدة التي يختارونها لأنفسهم، لأن روح التسامح هذه ضرورية لازدهار الدين.

ومع ذلك تواجه روح التسامح هذه تحديات مختلفة.. ثمة توجه في بعض أماكن العالم الإسلامي ينزع إلى تحديد قوة عقيدة الشخص وفقا لموقفه الرافض لعقيدة الآخر..

إن التعددية الدينية ثروة يجب الحفاظ عليها ويجب أن يشمل ذلك الموارنة في لبنان أو الأقباط في مصر، ويجب إصلاح خطوط الانفصال في أوساط المسلمين كذلك لأن الانقسام بين السنة والشيعة قد أدى إلى عنف مأساوي ولا سيما في العراق.

إن الحرية الدينية هي الحرية الأساسية التي تمكن الشعوب من التعايش، ويجب علينا دائما أن نفحص الأساليب التي نتبعها لحماية هذه الحرية، فالقواعد التي تنظم التبرعات الخيرية في الولايات المتحدة على سبيل المثال أدت إلى تصعيب تأدية فريضة الزكاة بالنسبة للمسلمين، وهذا هو سبب التزامي بالعمل مع الأميركيين المسلمين لضمان تمكينهم من تأدية فريضة الزكاة.

وبالمثل، فمن الأهمية بمكان أن تمتنع البلدان الغربية عن وضع العقبات أمام المواطنين المسلمين لمنعهم من التعبير عن دينهم على النحو الذي يعتبرونه مناسبا، فعلى سبيل المثال عن طريق فرض الثياب التي ينبغي على المرأة المسلمة أن ترتديها.

إننا ببساطة لا نستطيع التظاهر بالليبرالية عبر التستر على معاداة أي دين.. ينبغي أن يكون الإيمان عاملا للتقارب فيما بيننا، ولذلك نعمل الآن على تأسيس مشاريع جديدة تطوعية في أميركا من شأنها التقريب فيما بين المسيحيين والمسلمين واليهود.

إننا لذلك نرحب بالجهود المماثلة لمبادرة جلالة الملك عبد الله المتمثلة في حوار الأديان، كما نرحب بالموقف الريادي الذي اتخذته تركيا في تحالف

الحضارات. إننا نستطيع أن نقوم بجهود حول العالم لتحويل حوار الأديان إلى خدمات تقدمها الأديان يكون من شأنها بناء الجسور التي تربط بين الشعوب وتؤدي بهم إلى تأدية أعمال تدفع إلى الأمام عجلة التقدم لجهودنا الإنسانية المشتركة، سواء كان ذلك في مجال مكافحة الملاريا في أفريقيا أو توفير الإغاثة في أعقاب كارثة طبيعية.

الموضوع السادس الذي أريد التطرق إليه هو **موضوع حقوق المرأة**.

أعلم أن الجدل يدور حول هذا الموضوع، وأرفض الرأي الذي يعبر عنه البعض في الغرب ويعتبر المرأة التي تختار غطاء لشعرها أقل شأنا من غيرها، ولكنني أعتقد أن المرأة التي تحرم من التعليم تحرم كذلك من المساواة. إن البلدان التي تحصل فيها المرأة على تعليم جيد هي غالبا بلدان تتمتع بقدر أكبر من الرفاهية، وهذا ليس من باب الصدفة.

اسمحوا لي أن أتحدث بوضوح.. إن قضايا مساواة المرأة ليست ببساطة قضايا للإسلام وحده.. لقد شاهدنا بلدانا غالبية سكانها من المسلمين مثل تركيا وباكستان وبنغلاديش وإندونيسيا تنتخب المرأة لتولي قيادة البلد، وفي نفس الوقت يستمر الكفاح من أجل تحقيق المساواة للمرأة في بعض جوانب الحياة الأميركية وفي بلدان العالم، ولذلك ستعمل الولايات المتحدة مع أي بلد غالبية سكانه من المسلمين من خلال شراكة لدعم توسيع برامج محو الأمية للفتيات ومساعدتهن على السعي في سبيل العمل عبر توفير التمويل الأصغر الذي يساعد الناس على تحقيق أحلامهم.

باستطاعة بناتنا تقديم مساهمات إلى مجتمعاتنا تتساوى مع ما يقدمه لها أبناؤنا، وسيتم تحقيق التقدم في رفاهيتنا المشتركة من خلال إتاحة الفرصة لجميع الرجال والنساء لتحقيق كل ما يستطيعون تحقيقه من إنجازات.

أنا لا أعتقد أن على المرأة أن تسلك ذات الطريق الذي يختاره الرجل لكي تحقق المساواة معه، كما أحترم كل امرأة تختار ممارسة دور تقليدي في حياتها، ولكن هذا الخيار ينبغي أن يكون للمرأة نفسها.

وأخيرا أريد أن أتحدث عن **التنمية الاقتصادية وتنمية الفرص**.. أعلم أن الكثيرين يشاهدون تناقضات في مظاهر العولمة لأن شبكة الإنترنت وقنوات التلفزيون لديها قدرات لنقل المعرفة والمعلومات ولديها كذلك قدرات لبث مشاهد جنسية منفرة وفظة وعنف غير عقلاني، وباستطاعة التجارة أن تأتي بثروات وفرص جديدة ولكنها في ذات الوقت تحدث في المجتمعات اختلالات وتغييرات كبيرة.

وتأتي مشاعر الخوف في جميع البلدان حتى في بلدي مع هذه التغييرات، وهذا الخوف هو خوف من أن تؤدي الحداثة إلى فقدان السيطرة على خياراتنا الاقتصادية وسياساتنا، والأهم من ذلك على هوياتنا، وهي الاشياء التي نعتز بها في مجتمعاتنا وفي أسرنا وفي تقاليدنا وفي عقيدتنا.

ولكني أعلم أيضا أن التقدم البشري لا يمكن إنكاره، فالتناقض بين التطور والتقاليد ليس أمرا ضروريا، إذ تمكنت بلدان مثل اليابان وكوريا الجنوبية من تنمية أنظمتها الاقتصادية والحفاظ على ثقافتها المتميزة في ذات الوقت، وينطبق ذلك على التقدم الباهر الذي شاهده العالم الإسلامي من كوالالمبور إلى دبي.. لقد أثبتت المجتمعات الإسلامية منذ قديم الزمان وفي عصرنا الحالي أنها تستطيع أن تتبوأ مركز الطليعة في الابتكار والتعليم، وهذا أمر هام إذ لا يمكن أن تعتمد أية إستراتيجية للتنمية على الثروات المستخرجة من تحت الأرض، ولا يمكن إدامة التنمية مع وجود البطالة في أوساط الشباب.

لقد استمتع عدد كبير من دول الخليج بالثراء المتولد عن النفط، وتبدأ بعض هذه الدول الآن بالتركيز على قدر أكبر من التنمية، ولكن علينا جميعا أن ندرك

أن التعليم والابتكار سيكونان مفتاحا للثروة في القرن الواحد والعشرين.

إنني أؤكد على ذلك في بلدي.. كانت أميركا في الماضي تركز اهتمامها على النفط والغاز في هذا الجزء من العالم، ولكننا نسعى الآن للتعامل مع أمور تشمل أكثر من ذلك فيما يتعلق بالتعليم.. سنتوسع في برامج التبادل ونرفع من عدد المنح الدراسية مثل تلك التي أتت بوالدي إلى أميركا، وسنقوم في نفس الوقت بتشجيع عدد أكبر من الأميركيين على الدراسة في المجتمعات الإسلامية وسنوفر للطلاب المسلمين الواعدين فرصا للتدريب في أميركا، وسنستثمر في سبل التعليم الافتراضي للمعلمين والتلاميذ في جميع أنحاء العالم عبر الفضاء الإلكتروني، وسنستحدث شبكة إلكترونية جديدة لتمكين المراهقين والمراهقات في ولاية كنساس من الاتصال المباشر مع نظرائهم في القاهرة.

وفيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية سنستحدث هيئة جديدة من رجال الأعمال المتطوعين لتكوين شراكة مع نظرائهم في البلدان التي يشكل فيها المسلمون أغلبية السكان، وسأستضيف مؤتمر قمة لأصحاب المشاريع المبتكرة هذا العام لتحديد كيفية تعميق العلاقات بين الشخصيات القيادية في مجال العمل التجاري والمهني والمؤسسات وأصحاب المشاريع الابتكارية الاجتماعية في الولايات المتحدة وفي المجتمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم.

وفيما يتعلق بالعلوم والتقنية سنؤسس صندوقا ماليا جديدا لدعم التنمية والتطور التقني في البلدان التي يشكل فيها المسلمون غالبية السكان، وللمساهمة في نقل الأفكار إلى السوق حتى تستطيع هذه البلدان استحداث فرص للعمل، وسنفتتح مراكز للتفوق العلمي في أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، وسنعين موفدين علميين للتعاون في برامج من شأنها تطوير مصادر جديدة للطاقة واستحداث فرص خضراء للعمل لا تضر بالبيئة، وكذا سبل لترقيم السجلات وتنظيف المياه وزراعة محاصيل جديدة.

واليوم أعلن عن جهود عالمية جديدة مع منظمة المؤتمر الإسلامي للقضاء على مرض شلل الأطفال، وسنسعى من أجل توسيع الشراكة مع المجتمعات الإسلامية لتعزيز صحة الأطفال والأمهات.

يجب إنجاز جميع هذه الأمور عبر الشراكة.. إن الأميركيين مستعدون للعمل مع المواطنين والحكومات ومع المنظمات الأهلية والقيادات الدينية والشركات التجارية والمهنية في المجتمعات الإسلامية حول العالم من أجل مساعدة شعوبنا في مساعيها الرامية إلى تحقيق حياة أفضل.

إن معالجة الأمور التي وصفتها لن تكون سهلة، ولكننا نتحمل معا مسؤولية ضم صفوفنا والعمل معا نيابة عن العالم الذي نسعى من أجله، وهو عالم لا يهدد فيه المتطرفون شعوبنا، عالم تعود فيه القوات الأميركية إلى ديارها، عالم ينعم فيه الفلسطينيون والإسرائيليون بالأمان في دولة لكل منهم، وعالم تستخدم فيه الطاقة النووية لأغراض سلمية، وعالم تعمل فيه الحكومات على خدمة المواطنين، وعالم تحظى فيه حقوق جميع البشر بالاحترام.

هذه هي مصالحنا المشتركة وهذا هو العالم الذي نسعى من أجله، والسبيل الوحيد لتحقيق هذا العالم هو العمل معا.

أعلم أن هناك الكثير من المسلمين وغير المسلمين الذين تراودهم الشكوك حول قدرتنا على استهلال هذه البداية، وهناك البعض الذين يسعون إلى تأجيج نيران الفرقة والانقسام والوقوف في وجه تحقيق التقدم، ويقترح البعض أن الجهود المبذولة في هذا الصدد غير مجدية ويقولون إن الاختلاف فيما بيننا أمر محتم وإن الحضارات ستصطدم حتما، وهناك الكثيرون كذلك الذين يتشككون ببساطة في إمكانية تحقيق التغيير الحقيقي، فالمخاوف كثيرة وانعدام الثقة كبير، ولكننا لن نتقدم أبدا إلى الأمام إذا اخترنا التقيد بالماضي.

إن الفترة الزمنية التي نعيش فيها جميعا مع بعضنا البعض في هذا العالم

هي فترة قصيرة، والسؤال المطروح علينا هو: هل سنركز اهتمامنا خلال هذه الفترة الزمنية على الأمور التي تفرق بيننا أم سنلتزم بجهود مستديمة للوصول إلى موقف مشترك وتركيز اهتمامنا على المستقبل الذي نسعى إليه من أجل أبنائنا واحترام كرامة جميع البشر؟ هذه الأمور ليست أمورا سهلة..

إن خوض الحروب أسهل من إنهائها، كما أن توجيه اللوم للآخرين أسهل من أن ننظر إلى ما يدور في أعماقنا، كما أن ملاحظة الجوانب التي نختلف فيها مع الآخرين أسهل من العثور على الجوانب المشتركة بيننا، ولكل دين من الأديان قاعدة جوهرية تدعونا لأن نعامل الناس مثلما نريد منهم أن يعاملونا، وتعلو هذه الحقيقة على البلدان والشعوب وهي عقيدة ليست بجديدة، كما أنها ليست عقيدة السود أو البيض أو السمر، وليست عقيدة مسيحية أو مسلمة أو يهودية، هي عقيدة الإيمان الذي بدأت نبضاتها في مهد الحضارة والتي ما زالت تنبض اليوم في قلوب آلاف الملايين من البشر، هي الإيمان بالآخرين، الإيمان الذي أتى بي إلى هنا اليوم.

إننا نملك القدرة على تشكيل العالم الذي نسعى من أجله، ولكن يتطلب ذلك منا أن نتحلى بالشجاعة اللازمة لاستحداث هذه البداية الجديدة، آخذين بعين الاعتبار ما جاء في القران الكريم "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"، ونقرأ في التلمود ما يلي "إن الغرض من النص الكامل للتوراة هو تعزيز السلام"، ويقول لنا الكتاب المقدس "هنيئا لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعونَ".

باستطاعة شعوب العالم أن تعيش معا في سلام.. إننا نعلم أن هذه رؤية الرب، وعلينا الآن أن نعمل على الأرض لتحقيق هذه الرؤية.

شكرا لكم والسلام عليكم.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- مجموعة خطب الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات، لأعوام 1970، 1971، 1972، 1973، 1974، 1975، 1977، والنصف الثاني من عام 1978. الهيئة المصرية العامة للاستعلامات، القاهرة.
- نسخة إلكترونية من خطب الرئيس المصري الراحل محمد أنور السادات. الهيئة المصرية العامة للاستعلامات، القاهرة.
- إصدار إلكتروني من خطبة أوباما في القاهرة، تاريخ الدخول 10 أبريل 2012، على الرابط الآتي: http://www.youtube.com/watch?v=zhwVZAhURWA

ثانيًا: المراجع

1. مراجع عربية ومترجمة

أرسطو. الخطابة. ترجمة عبد الرحمن بدوي، نشر دار الشئون الثقافية العامة. بغداد، ط2، 1986.

أفلاطون. (1970). **محاورة جورجياس**، ترجمها عن الفرنسية محمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة.

إمام، عبد الفتاح إمام. (1994). **الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي**. عالم المعرفة، الكويت.

أمين، جلال. **مصر في عصر الجماهير الغفيرة**. دار الشروق، مصر، ط3، 2009.

بهاء الدين، أحمد. (1987). **محاوراتي مع السادات**. دار الهلال، القاهرة.

حمدان، جمال. (1995). **(مختارات من) شخصية مصر**. مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

رمضان، عبد العظيم. (1989). مصر في عصر السادات. مكتبة مدبولي، القاهرة.

الزيات. محمد عبد السلام. (1989). **السادات: القناع والحقيقة**. كتاب الأهالي، القاهرة.

الزيات، لطيفة. (2004). أوراق شخصية. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

السادات، أنور. (1978). البحث عن الذات. المكتب المصري الحديث، القاهرة.

شكري، غالي. (1978). الثورة المضادة في مصر. دار الطليعة، بيروت.

شكري، غالي. (1990). المثقفون والسلطة في مصر. أخبار اليوم، مصر، ط1.

شيللر، هربرت. (1974). **المتلاعبون بالعقول**. ترجمة عبد السلام رضوان، ط2، مارس1999، عالم المعرفة، الكويت.

صبري، موسى. (1985). السادات: الحقيقة والأسطورة. المكتب المصري الحديث، القاهرة.

عبد الفتاح، نبيل. (1984). **المصحف والسيف: صراع الدين والدولة في مصر**. مكتبة مدبولي، القاهرة.

عبد اللطيف، عماد. (2005). "بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته". ضمن *"Power and the Role of the Intellectual"*، كلية الآداب، جامعة القاهرة. ص 7 – 36.

عبد اللطيف، عماد. (2008). الدراسات العربية حول الخطابة السياسية: عرض نقدي، مجلة "أوراق في اللغة"، مجلة علمية محكمة، تصدرها جماعة اللغويين بالقاهرة، عدد 7، ص 23–53.

عبد اللطيف، عماد. (2012). بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة. دار التنوير، بيروت –القاهرة– تونس.

عبد اللطيف، عماد. (2008). موقف أفلاطون من البلاغة من خلال محاورتي جورجياس وفيدروس، **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الاجتماعية والإنسانية**، مجلة علمية محكّمة، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مجلد 5، عدد 3 (2008)، ص 227–244.

عبد اللطيف، عماد. (2009). لماذا يصفق المصريون: أساليب التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. دار العين للنشر، القاهرة.

العجمي، فالح. (2003). اللغة والسحر. الرياض.

فهمي، إسماعيل. (1985). التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط. مكتبة مدبولي، القاهرة.

فهمي، محمد عباس. (1976). **من أجل وحدة وطنية حقيقية وفي سبيل انتصار نهائي على العدو: مناقشة نقدية لخطب الرئيس السادات**. دار الحقيقة للنشر، القاهرة.

مارشال، جوردون. (2001). **موسوعة علم الاجتماع**. ترجمة محمد الجوهري وآخرون، نشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

المحلاوي، حنفي. (1997). السادات بين هيكل وموسى. الدار العربية للكتاب، القاهرة.

محمد، عبد العليم. (1990). **الخطاب الساداتي: تحليل الحقل الأيديولوجي للخطاب الساداتي**. كتاب الأهالي، القاهرة.

مرزوق، عبد الصبور. (1967). **الخطابة السياسية في مصر من الاحتلال البريطاني إلى إعلان الحماية**. دار الكاتب العربي، القاهرة.

موسى، سلامة. (1945). **البلاغة العصرية واللغة العربية**. المطبعة العصرية بمصر.

مؤنس، حسين. (2005). دراسات في ثورة 1919. دار الرشاد، القاهرة، ط2.

نصر، مارلين. (1981). **التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (**1952–1970**): دراسة في علم المفردات والدلالة.** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

هيكل، محمد حسنين. (1983). **خريف الغضب: قصة بداية ونهاية أنور السادات،** طبعة دار الأهرام (1988)، القاهرة.

هيكل، محمد حسنين. (2008). "المقالات الممنوعة"، جريدة **المصري اليوم**، القاهرة، 2008/01/15. عدد 1311.

2. مراجع أجنبية

Abdul–Latif, E. (2011). Interdiscursivity between political and religious discourses in a speech by Sadat: Combining CDA and addressee rhetoric. *Journal of Language and Politics* 10:1 (2011), 50–67. Amsterdam: John Benjamin's.

Allan, K & K. Burridge. (2006). *Forbidden Words: Taboo and the Censoring of Language*. Cambridge: Cambridge University Press.

Austin, J. (1962). *How to do Things with Words*. Oxford: Oxford University Press.

Baker, P., Gabrielatos, C., Majid KhosraviNik, Krzyżanowski, M., McEnery, T., & Wodak, R. (2008). A useful methodological synergy? Combining critical discourse analysis and corpus linguistics to examine discourses of refugees and asylum seekers in the UK press. *Discourse & Society*, 19(3), 273–306.

Blommaert, J. and C. Bulcaen. (2000). "Critical Discourse Analysis". *Annual Review of Anthropology* 29, pp 447–66.

Fairclough, N. (1989). *Language and Power*. London; New York: Longman.

Fairclough, N. (1992). *Discourse and Social Change*. UK; Cambridge, MA: Polity Press.

Fairclough, N. (Ed.) (1992). *Critical Language Awareness*. London: Longman.

Gelber, K. (2002). *Speaking Back: the Free Speech versus Hate Speech Debate*. Amsterdam; Philadelphia: J. Benjamins Pub. Co

Hardt–Mautner, G. (1995). 'Only Connect.' Critical Discourse Analysis and Corpus Linguistics [Electronic Version]. *Unit for Computer Research on the English Language Technical Papers 6*, Lancaster University. Retrieved 4/12/2012 from http://ucrel.lancs.ac.uk/papers/techpaper/vol6.pdf.

Kress, G. and T. van Leeuwen. (2001). *Multimodal Discourse: The Modes and Media of Contemporary Communication*. Arnold: London.

Kress, G., and T. van Leeuwen. (1996). *Reading Images: The Grammar of Visual Design*. London: Routledge.

Mautner, G. (2005). Time to get wired: Using web–based corpora in critical discourse analysis. *Discourse & Society, 16*(6), 809–828.

Mautner, G. (2009). Corpora and critical discourse analysis. In P. Baker (Ed.), *Contemporary Corpus Linguistics* (pp. 32–46). London: Continuum.

Searle,J .(1969) .*Speech Acts: An Essay in the Philosophy of Language*. Cambridge: Cambridge University Press.

van Dijk, T. (2003). "Critical Discourse Analysis", in D. Schiffrin D., D., Tannen and H.E. Hamilton (eds.) *The Handbook of Discourse Analysis*, Blackwell Publisher.

van Dijk, T. (2007). (ed). *Discourse Studies*. Sage Benchmark Series. New Delhi: Sage, vol 1, p7–25.

Wodak, R. and M. Meyer (eds.). (2008). *Methods of Critical Discourse Analysis*. London: Sage.

المؤلف في سطور

د.عماد عبد اللطيف

- باحث زائر بجامعة كمبريدج، المملكة المتحدة وأستاذ مشارك بجامعة قطر. درس البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة وجامعة لانكستر الإنجليزية. وحاضَر في جامعات مصرية وإنجليزية ونرويجية ومغربية وبلجيكية.
- نشر ما يقرب من أربعين بحثًا بالعربية والإنجليزية، في مصر والمغرب والإمارات والبحرين والكويت وسلطنة عُمَان والجزائر وقطر وسلطنة بروناي وهولندا وفرنسا وإنجلترا.
- اختارته مؤسسة ماركيوز هو إز هو الأمريكية ضمن أهم الشخصيات الأكاديمية في العالم العربي في عام 2013. كما اختير عام 2011 عضوًا في الهيئة الاستشارية لحولية العربية جورنال التي تصدر عن الرابطة الأمريكية لأساتذة اللغة العربية. واختير عام 2014 عضوًا في المجلس العلمي للمركز المصري لتقدم العلوم والتكنولوجيا والابتكار ECASTI.

للدكتور عماد خمسة كتب مؤلَّفة منفردًا هي:

- **تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف.** (2014)، دار كنوز المعرفة، الأردن.
- **"بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة".** (2012). دار التنوير، بيروت – القاهرة – تونس.
- **استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي.** (2012). الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

- **البلاغة والتواصل عبر الثقافات**. (2012). سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
- **لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن**. (2009). دار العين، القاهرة.

- شارك في تأليف أحد عشر كتابًا؛ نُشرت في مصر والمغرب والأردن وفرنسا. كما ترجم منفردًا وبالاشتراك خمسة كتب في تحليل الخطاب والبلاغة والفلسفة، هي: **"الديمقراطية في الخطاب السياسي"**؛ **"أرسطو: مدخل مختصر"**؛ **"موسوعة أكسفورد في البلاغة"**؛ و**"الاستعارة في الخطاب"**؛ و**"شعرية المكان في الأدب العربي الحديث"**، "وراجع وقدّم ثلاثة كتب أخرى، هي: "الخطاب والسلطة"، "مناهج التحليل النقدي للخطاب"، "التحليل النقدي للخطاب".
- شارك – بالإنجليزية – في تأليف الإصدار الثالث من **"دائرة المعارف الإسلامية"**، **"وموسوعة أكسفورد للشخصيات الإفريقية البارزة"** في إصداريها الأول والثاني (2011–2013).

حاز جوائز عربية ودوليَّة عدّة منها: جائزة **دبي الثقافية** للحوار مع الغرب في دورتها السادسة (2009)؛ جائزة أفضل أطروحة دكتوراه من جامعة القاهرة، (2009)؛ جائزة **طه حسين في الدراسات اللغوية والنقدية في مصر والعالم العربي** (2010)؛ جائزة **المهاجر العالمية في الفكر والآداب والفنون من أستراليا** (2011)، فرع البحث العلمي؛ جائزة **معرض القاهرة الدولي للكتاب** عن **"بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة"**، 2013.

للتواصل: emad.abdulatif@gmail.com